

البحران بن المنذر  
أبوقابوس



مشاهير العرب  
①

# النعمان بن المنذر أبوقابوس

الدكتور عبد العزيز عبد المجيد

الطبعة الخامسة



دار المعرفة



## ١ - الزمان والمكان

نحن الآن في صيف سنة ستمائة بعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام ، وقبل ظهور الدعوة الإسلامية على يد الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بنحو عشر سنوات<sup>(١)</sup> . ونحن نغادر قلب جزيرة العرب متجهين إلى الشمال الشرقى نحو نهر الفرات . وفي طريقنا هذا نجد قبيلة طي<sup>٢</sup> في شمالي الجزيرة العربية . فإذا ما نظرنا شرقاً رأينا قبيلة بكر بن وائل الشهيرة ، تنتشر بجبلها وإبلها ، وخيامها ورحالها في الهضاب والمراعى الواقعة الآن غربى بلاد الكويت والبحرين .

ونتقدم من هذا المكان نحو الشمال الشرقى حتى نصير على مسافة أربعين ميلاً تقريباً من مجرى نهر الفرات . وهنا نجد أنفسنا على قمة هضبة صخرية رملية . نسير بها في الاتجاه عينه ، فتقابلنا دروب وشقوق وأخاديد ، وأودية صغيرة هي مجارى المياه حينما تهطل السيول أحياناً مرة في كل بضع سنوات . لذلك لا نرى في بطون هذه الأودية إلا قطعاً من الحجارة تختلف كبراً وصغراً ، قد خلفتها السيول ، بعد أن جرفتها أمامها من قدم الجبال والتلال ، وبعد أن جفت مياه السيول .

(١) ولد الرسول الكريم سنة ٥٧١ م . وأخذ يدعو إلى الإسلام في سن الأربعين

أى حوالي سنة ٦١٠ م .

ونرى على بطون هذه الوديان الرملية تجعدات شبيهة بالأمواج ، خلقتها الرياح التي تهب في اتجاهات مختلفة أثناء السنة . وكثيراً ما نسمع لهبوب هذه الرياح خلال الأخاديد الضيقة والوديان أصواتاً كهواء الذئاب .

ونرى هنا وهناك أكواماً من العشب الأخضر الداكن كأنما لوحته حرارة الشمس ، كما نرى شجيرات جرداء وقفت أغصانها تلوح في القضاء ، وبعض ينابيع للمياه تنبثق في هدوء واستمرار من بين طبقات الصخور أو منعطفات الوديان . فإذا ما جاء العصر ، وحانت ساعة الأصيل - بين العصر والغروب - اصططح الأفق بطلاء أحمر أو برتقالى ، يخف بالتدرج كلما رفعنا رءوسنا إلى السماء حيث يمتزج بزرقها . فإذا نظرنا إلى الخلاء حولنا وجدنا السكون قد خيم عليه ، وغطاه ثوب بين الصفاء والظلمة . ونبصر من حين لآخر قطعاناً من الغزلان قد خرجت من مخابئها وكهوفها ، وانطلقت كالسهام متجهة نحو ينابيع المياه طلباً للرعى . وكلما تقدم الليل صفت السماء ، وزادت نجومها بهاء وضوءاً ولعناً ، حتى يهتدى بها المسافرون ليلاً في معرفة أماكنهم واتجاهاتهم ، ومواقع المنازل التي يقصدونها .

من مرتفع هذه الهضبة نجد الطريق أمامنا مطروقاً بين تلين عالين ، إنه طريق رملى واسع ، إنه طريق القوافل التي كانت تسلكه ذهاباً وإياباً من قلب الجزيرة وأطرافها الجنوبية والشرقية والغربية إلى الجهات

الشمالية المجاورة لوادى الفرات ، وإلى بلاد فارس الواقعة وراء نهر دجلة . تلك القوافل التي كانت تحمل معها حاصلات الجزيرة العربية من جلود ووبر وأصواف وتمر ورقيق ، ثم تعود محملة بحاصلات فارس والهند من ثياب ، وسيوف ، ورماح وأبسطة وخمور وآلئ .

ونتقدم في هذا الطريق حتى نصل إلى تل رملي نصعد فوقه ، ونقف قليلاً لنرى وادياً فسيحاً متسعاً ينحدر بالتدرج نحو الشمال الشرقي حتى ينتهي بشاطئ نهر الفرات .

وفي هذا الوادى الفسيح يرى الناظر مدينة كبيرة ، قد ظهر بارزاً من بين دورها قصر فخم البناء ، شيد من الحجر والرخام . تبدو قبابه الرخامية صاعدة في السماء الزرقاء . وقد أخذت أشعة الشمس تنصب عليها ، فتظهر كأنها بحيرات من فضة مذابة . تلك هي مدينة الحيرة ، عاصمة ملك المناذرة ، وذلك هو قصر ملكهم .

ويحيط بهذا القصر سور عال مربع ، تقوم عند كل زاوية من زواياه الأربع بناية ، هي برج مرتفع له بوابة كبيرة توصل إلى بناية القصر وكل برج يسمى « مسلحة » ، لأن بها حراساً يحملون السلاح ، ولأن بها سلاحاً كثيراً قد وضع في مخازنها لاستعماله عند الحاجة ؛ لرد العدو أو الهجوم عليه عند الغزو . وهذه المسالح - والقصر الذي بداخلها - تكون قلعة كبيرة تطل على ما حولها من مساكن ، وأسواق ، وضواح ،

وبساتين ، وغابات ، وأحراج ، وأودية . وبين كل مسلحة وأخرى جنود من الفرسان يسرون على ظهور خيولهم العربية المطهمة ذهاباً وإياباً لا يسمحون لأحد أن يدخل « القصر النعماني » إلا بإذن من رئيس المسلحة التي بها الباب الذي يريد الدخول منه . وكل باب مخصص نوع من الناس . فهذا « باب الفرس » لا يدخل منه العرب . وهذا « باب العرب » لا يدخل منه الفرس . وهذا « باب الروم » لوفود الروم وللجيوش التي تخرج إلى بلاد الروم غازية أو مدافعة عن الحدود الرومانية ، وهذا هو « الباب النعماني » يفتح للنعمان الثالث أبي قابوس ملك الحيرة حينما يخرج للغزو ، أو للصيد ، أو للترعة ، أو السفر إلى بلد بعيد . وحين يستقبل ضيوفه من الملوك والأمراء من أى بلد كانوا .

وعلى برج كل مسلحة وقف جنود بحراهم وقسيهم ، ينظرون إلى مسافات بعيدة ، ويتطلعون ، ويستطلعون حركات الداهيين والقادمين خشية أن يكون هناك عدو مغير . وفي وسط الجدار الجنوبي بوابة كبيرة تسمى « بوابة القصر » تفتح عادة طول اليوم يدخل منها أو يخرج أهل الحيرة ومن لهم صلة بالقصر النعماني من الأمراء أو التجار أو الشعراء أو الجنود . وعلى جانبي هذه البوابة برجان كبيران فيهما يقيم الحرس النعماني الخاص ليل نهار ، يتناوب رجاله الحراسة . وفيه رئيس الحرس . ومنه تصدر الأوامر إلى سائر رجاله . ورئيس الحرس هذا مسئول أمام الملك

النعمان الثالث « أبى قابوس » نفسه .

ويتفاهم حراس هذا القصر وهم فى البروج بالنفير ، تسمع أصواته تنطلق من وقت لآخر فى نغمات مختلفة قصيرة أو طويلة كأنها لغة الحديث . وبأصوات النفير تصدر الأوامر من البرج الرئيسى إلى الحراس فى الأبراج الأخرى ليقوموا بما يُطلب إليهم من عمل . فإذا كانت قافلة مثلاً قادمة من بلاد فارس وصل البريد — يحمله رجل يركب جواداً قوياً — يحمل الرسائل من مكان إلى مكان — إلى رئيس الحرس يخبره بقرب وصول هذه القافلة . فيصدر الرئيس أوامره بصوت النفير إلى بعض الحرس الذين فى البرج المجاور لباب الفرس ، لكي ينطلقوا نحو هذه القافلة ليستقبلوها ، ويتقدموها فى سيرها نحو سوق الخيرة . ولا تستطيع هذه القافلة دخول الخيرة ما لم يصل إليها الأمر بالدخول على يد هؤلاء الفرسان الحراس الذين يخرجون من مسلحتهم إليها . ولأصوات النفير نغمات خاصة يفهمها الحراس . وأحياناً يستعمل الحراس فى مخاطبتهم الأعلام للإشارة وتبادل الرسائل ، كما يفعل أعضاء فرق الكشافة فى العصر الحديث . ولكن إشارة الأعلام لا تستعمل إلا نهاراً ، وحين يكون الجو صحوً .

وهذه المنطقة التى يحيط بها السور ، وتحيط بها الأبراج أو المسالح منطقة حرام . ولذلك تسمى « الحرم النعمانى » فلا يدخل إليها أحد إلا بإذن كما ذكرنا .

أما خارج هذه المنطقة فنتشر منازل مختلفة في علوها ، وقيمة بنائها ، وسعتها ، ومنظرها . بعضها مبنى من الحجر ، وبعضها مبنى من الرخام ، وبعضها من الآجر ، وبعضها من الغاب وسيقان الأشجار . ومنها المرتفع والمنخفض . وفيها الفحم والمتهدم المهمل . وشوارع المدينة ضيقة مهملة . ولكن هناك ساحة كبيرة واسعة تسمى « مناخ القافلة » فيها يبيع التجار إبلهم ، ويربطون خيولهم ، حيث يقدمون لها العلف والماء ، وعنها يتزلون أحماهم وبضائعهم ، وعليها يحملون أثقالهم وأمتعتهم . ومن هذا المناخ - مناخ القافلة - ينبعث رغاء الإبل ، وصهيل الخيل ، ونهيق البغال والحمير ، وضوضاء الخدم والرقيق ، وأصوات الهوادج والبراذع وأسرجة الخيل ، وأخلاط من الأصوات الناتجة عن نقل البضائع وإنزالها من فوق ظهور الدواب أو تحميلها عليها . وتنبعث منها روائح الدواب : علفها ، وبعرها ، وروثها ، وأنفامها .

وقريباً من هذا المناخ ، وإلى جانبه نرى رحبة فسيحة كأنها ميدان ، تقوم حوثها حوانيت ، وفنادق ( خانات ) . ويرى الداخل إلى هذه الرحبة أزياء مختلفة غريبة أو مألوفة ، يلبسها أقوام لهم سحن ولغات أجنبية . فهذا هندي قد وضع في عمامته جوهرة لامعة ، وهذا فارسي قد لبس ثياباً مزخرفة بالقصب وخيوط الذهب وتفروح من لحيته رائحة المسك والعنبر ، وهذا روماني عارى الرأس قد توشح بحرام أحمر أرجواني ، وهذا

عربي قد تمنطق بحزام يتدلى منه سيفه ، ولفّ حول إبطه اليمني وعلى كتفه اليسرى ثوباً من الوبر أو الصوف . والكل في لفظ وهرج ، يسامون في البيع والشراء ، ويتبادلون البضائع وفي ركن من هذه الساحة قامت حلقة من الناس في وسطها الجوازي البيض والسود : بعضهم لم يتجاوزن سن الرابعة عشرة أو أكبر قليلاً ؛ فتيات ناهدات نصف عاريات ، ذوات عيون زرقاء وبشرة بيضاء حمراء ، وشعر أشقر ؛ وثمة أخريات زنجيات فطس الأنوف ، غليظات الشفاه ، لا يبدو فيهن شيء أبيض إلا الأسنان وبياض العيون ، وثمة عجائز متهالكات يمر بين الزبائن ولا يعبرهن إلا نظرة عابرة .

وخارج هذه المدينة الصاخبة - الحيرة - قد انتشرت أكواخ من اللبن والطين ذات سقوف من الغاب . وخيام دكاء ظلماء صنعت من الجلود أو الوبر أو الصوف ، زادتها حرارة الشمس قدماً وهلهلة . ويفصل هذه الأكواخ والخيام بعضها عن بعض مجموعات من أشجار التين والكروم ، أو أحراج من النخيل . ولكن الناظر إلى الناحية الشرقية ، على مدى البصر ، يرى الشاطئ الغربي لنهر الفرات . وقد انتشرت على جانبه بساتين النخيل الكثيفة ، يرتفع سعفها في الفضاء كضفائر الغتيات متمايلة مع الهواء ، وقد تفتحت سباطات النخل عن شماريخ متراصة عليها براعم من طلع نضيد ، بارزة بيضاء كحبات الخرز أو قطرات الندى .

وعلى سيقان النخيل ظهرت حلقات سوداء تفصل ما تحتها عما فوقها ؛  
فما تحتها أصفر نظيف وما فوقها أسمر ترابي اللون ؛ ذلك لأن مياه الفرات  
قد ارتفعت أثناء الفيضان إلى مستوى تلك الحلقات ، في فصل الشتاء  
وهو فصل الأمطار في أعالي الفرات .

وفي الفضاء الفسيح يرى الناظر قطعان الإبل والغنم والمعيز ترعى  
كأنها عاشت في ذلك المكان منذ خلق الله الأرض ، فهي جزء منه وهو  
جزء منها . وعلى تلك التلال المنخفضة والرحاب نبتت حشائش بعضها  
لا يزال أخضر والآخر لم تبق منه إلا جذور صفراء كما نبتت شجيرات  
وأعشاب شوكية ، وأنواع من الصبار الأخضر الداكن .

وهناك من وراء أحراج النخيل وبين فجواتها تظهر زوارق شرعية  
تذهب وتجيء فوق مياه الفرات ، وقد انحسرت المياه إلى القاع بعد أن  
ارتفعت في الشتاء حتى غمرت جانبيه ، ووصلت إلى أطراف الحيرة  
فهددتها بالغرق والظوفان ، ويرى الناظر كذلك مراكب تسير مزدوجة :  
كلّ مركبين متجاوران ، وبينهما شبكة يُدليها الصيادون إلى قاع النهر ،  
ثم يرفعونها محملة بالأسماك . وإلى جانب هذه المراكب والزوارق ظهرت  
سفينة كبيرة يسيرها رجال يجدفون على الجانبيين ، فتعبر السفينة الفرات  
من شرقه إلى غربه ، ذهاباً وإياباً ، محملة بالإبل والحيل والناس ، إنها  
المعبر الذي يوصل ما بين شطى الفرات لينقل المسافرين ودوابهم وأمتعتهم .

فإذا ما عدنا إلى الحيرة نفسها، ودخلنا «القصر النعماني» وسرنا حتى وصلنا إلى «قاعة السمر» رأينا غرفة كبيرة فسيحة الأرجاء . مفروشة بالبسط العجمية ، في جوانبها وأركانها زهريات من الخزف الصيني والفارسي نقش عليها صور ملوك ومغنيات وفرسان ، وقد ملئت بالأزهار والرياحين . ويتدل من سقف القاعة خمس مجموعات من الشمعدان النحاسي الأصفر بكل شمعدان مائة شمعة موقدة . وجدران القاعة مغطاة بالمرايا التي تعكس أنوار هذه الشموع جميعها ؛ فتظهر القاعة كأنها أوسع من حقيقتها .

وللقاعة بابان ، أحدهما كبير يدخل منه الملك ورجاله وزائروه ويخرجون ؛ والآخر صغير في الجانب الأيسر من جدار الباب الكبير . وقد وقف خارج الباب الكبير وأمامه أربعة حراس ، لهم قامات طويلة فارعة . يلبسون ثياباً عريية فارسية مزركشة بالقصب وشرايح الذهب ، وعلى رؤوسهم عمامم بكل عمامة ريشة بيضاء . وتحت الإبط اليسرى لكل حارس سيف معلق من حزامه ، له يد من فضة ، وقد قبض الحارس بيده اليسرى على وسط حربة يلمع طرفها المدبب .

أما عصام حاجب النعمان فيقف في داخل القاعة ، قريباً من الملك حينما يجلس ، بحيث يسمع كل كلمة يقولها سيده . ويرى كل إشارة تصدر عنه . وموقفه بين الباب الكبير والباب الصغير . وهو

لا يخرج أو يدخل إلا من الباب الصغير .

فإذا ما جلس النعمان جلس على أريكة غطاؤها من الحرير الأحمر ، وحشوها من ريش النعام ، وجوانبها مغطاة بصفائح الذهب . وجلس أمامه أكبر وزرائه ويسمى « الرديف » وعلى يمينه يجلس الراوى ، وعلى شمال هذا الرديف مضحك النعمان . وعلى كل جانب من هؤلاء الثلاثة وقف مترجمان أحدهما يجيد الرومية والعربية ، والآخر يجيد الفارسية والعربية . أما عن يمين الملك وشماله فقد وقف خادمان يروّحان له بمراوح من ريش النعام المعطر بالمسك ، وكأنتهما فى حركتهما بالمراوح آلة ميكانيكية دقيقة لا تكل ولا تمل ، فتتحرك أيديهما حركات منتظمة ذهاباً وإياباً دون خلل أو ارتباك ، وكأنما قد مُسّمِر كل من هذين الخادمين فى مكانه .

## ٢ - النابغة فى مجلس الجدل

هناك فى ساحة السوق ، وفى إحدى ليالى الصيف المقمرة ، جلس جماعة من أهل الحيرة والأعراب فى شكل حلقة ، وجلس بينهم بدوى أبيض الوجه ، مشرقه . قد جاوز الخمسين من العمر . وقد ارتفع صوته وهو يقول :

— لقد قلت له : يا مولاي ، أبيت اللعن :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة      وليس وراء الله للمرء مذهب  
لئن كنت قد بلغت عنى وشاية      لمبلغك الواشى أغش وأكذب  
ولكننى كنت امرأ لى جانب      من الأرض فيه مستراد ومذهب  
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم      أحكم فى أموالهم وأقرب  
كفعلك فى قوم أراك اصطفيتهم      فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا  
فلا تتركنى بالوعيد كأننى      إلى الناس مطلىّ به القار أجرب  
فإنك شمس والملوك كواكب      إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وهنا يقف أحد الحاضرين ويصيح قائلاً :

— أنت المخطئ يا نابغة ذبيان ، عليك كل اللوم . لقد غمرك  
النعمان بفضله ، وشملك بعطفه . وجعل منك صديقاً ، تجالسه وتسامره .  
وكان يؤاكلك فى صحاف من الذهب والفضة ، ويشاربك على أصوات  
الموسيقى ، وغناء المغنيات . وكان لا يحجبك عنه حاجب ، ولا يردك  
حاجة . ولقد غمرك بعطاياه ومنحه كلما قدمت عليه ، وأنشدته قصيدة .  
فكنت تعود إلى قومك بالعطاء الكثير ، من المال والإبل والحوارى . والآن  
إنك لم تحفظ جميله عندك ، ولم تقدر نعمته ، ولم تصن حرمة ألت  
القائل فى وصف زوجته « المتجردة » تنزل ، وتطمع فى جمالها :

بالدر والياقوت زين نحرهما      ومُفصل من لؤلؤ وزبرجد

قامت تراءى بين سجنى كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد  
 أو درة صدفة غواصها بهج منى يرها يهلّ ويسجد  
 نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود  
 ماذا تعنى بالبيت الأخير؟ وكيف تجرؤ على أن تصفها بهذا  
 الوصف؟ كأنما كانت لها حاجة تريد أن تقضيها حينما نظرت إليك،  
 يا صعلوك! أأست بقولك هذا مجترئاً على حرم سيدك منكراً لنعمته،  
 جاحداً لفضله، مذيعاً لسره؟

وعلت أصوات استحسان من الحلقة التي أخذت تكبر ويزيد  
 عددها، ويفد إليها رجال كانوا واقفين أمام الحيوانات، فسمعوا تلك  
 المناقشة الحادة. ولكن النابغة الذبياني وقف، ورفع يديه طالباً السكوت  
 والاستماع، وأن تتاح له فرصة القول. وفي نغمة حادة مستعطفة قال:

— تهمة أنا منها برىء، تلك التي لفقها لى خصومى وأعدائى. فما  
 كنت — ورب الكعبة — لأنطق بهذا الشعر لو قاله شاعر غيرى،  
 وما كنت لأفكر فى نظمه أو قد رأيت سيدتى، وصاحبة أميرنا النعمان.  
 ولو كان رأسى هذا قد فكر فى نظم مثل هذا الشعر لفصلته عن جسمى،  
 أو كان قلبى هذا قد أوحى لى بمثل هذا الشعور لخلعته من جوفى.  
 إنها الغيرة التي دفعت أعدائى من الشعراء والأمراء المقربين للمليك أن  
 يحسدونى. وأن يلغقوا هذه القصيدة التي أنامنها براء. ثم يا قوم! إن

مولاي لم يتحدث عنى بجريمة ، وإنما كل ما عمل هو أنه أمر حراس قاعته ألا يسمحوا لى بالدخول عليه كعادتي ، فلما بلغت إلى عصام حاجبه أتوسل إليه أن يمكّنني من الدخول دخلت على الأمير وهو جالس في ندمائه فلم يبشّ في وجهي كعادته ، وحييته فلم يرد على . فأشدته قصيدتي التي أعتذر فيها ، والتي عرفتموها ، ويرونها أهل الحيرة في مجالسهم ، والتي بدأتها بقولي :

أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب  
وما إن أتم النابغة حديثه حتى انطلق صوت رجل شيخ ، يبدو من  
تجاعيد وجهه تجارب الزمن العميقة ، وقال :

- إن الشائعات لا تصلح دليلاً على الجريمة . وما دام مولانا المليك لم يفه بسبب غضبه على النابغة ، فكيف تأخذون برأى الأعداء فيه . إن جريمة الذبياني عندي هي أنه أكثر من ذهابه إلى أعدائنا الغساسة ، والتردد على قصورهم ومجالسهم ، وتلقى العطاء منهم ؛ فهو صديق أعدائنا ، وصديق أعدائنا عدونا . ومليكننا . . . . فقاطعته أصوات استحسان من كل جانب تردد :

زَه ! زَه ! كلام هو الحكمة ، والرأى السليم . لا مقام لعدونا بيننا .

واستأنف الشيخ الحكيم قوله :

- رويداً حتى أتم كلامي ! إن مليكننا أقدر الناس على الانتقام

ولو قد أراد أن يعاقب نابغة بنى ذبيان على ما فعل لكان أولى منا بعقابه .  
ويكنى أنه حرمه استقباله ، وأن يضمه إلى مجلسه ، والنابغة الآن في حرمانا  
وضيافتنا . ونحن العرب نرعى حرمة الضيف ، ونؤمن حياته ما دام بيننا ،  
وما لم يعلن عداً لنا ، أو حرباً علينا . وسوف يبقى النابغة بيننا ضيفاً  
كريماً حتى يرحل عنا .

وساد صمت عميق ، سمعت بعده همهمة ، فهم منها استحسان لهذا  
الرأى ، ووقف النابغة مرة أخرى يقول :

— يا كرام الحيرة من بنى نلحم . ويا من حملتم معكم من جنوبي  
بلاد العرب واليمن لغتنا وأخلاقنا وفتوتنا ! إن كنت مجرمأ أو محطأ فحكما  
سيوفكم في . إن وفأى الملك المناذرة صاف كالذهب ، باق راسخ  
كالبجبال . سأرحل عن هذه البلاد مع أول قافلة يجسى لا بقلبي ، فهو  
مقيم معكم ، يضم وفأى وولأى لمن شملنى بنعمته وفضله . وسأرحل ،  
ولكن قصائدى فى الاعتذار لصاحب النعمة على لن تموت . وسيحمل  
الركبان والوافدون إلى الحيرة قصائد اعتذارى التى سوف يخلدها الزمان .  
وهأنذا أتوجه إليه معتذراً مرة أخرى :

وعيد أبى قابوس فى غير كنهه أتانى ودونى راكس فالضواجع<sup>(١)</sup>

(١) جاء فى تهديد النعمان فى غير ما حقيقة تدعو إليه . وراكس : واد ، والضواجع :  
منحنيات الأودية .

فبت كأنى ساورتى ضئيلة  
 أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى  
 مقالة أن قد قلت : سوف أناه  
 لعمرى - وما عمرى على بهين -  
 أقارع . . . . .

وقبل أن ينطلق بالكلمة التالية سُمعت أصوات النفير تصدر من  
 « مسلحة باب الروم » ، وهو نفير إذا سمع من هذه المسلحة كان  
 صوت إنذار بالخطر . فسرت في الحاضرين موجة من الوجوم ، والتساؤل ،  
 والقلق . وأخذوا ينصرفون فرادى وجماعات ، حتى وجد النابغة نفسه وحيداً  
 واتجهت الجماهير إلى «مسلحة باب الروم» في صخب واهتمام . والكل  
 يتساءل عن سبب هذا النفير . والكل متلهف لمعرفة ما حدث .

### ٣ - الغساسنة خصوم المناذرة

الغساسنة قبيلة عربية الأصل . كان مقرها اليمن، وكانت تسمى أزد،  
 فهاجرت حوالى سنة ٣٠٠ م عند ما تهدم سد مأرب الذى أشار إليه  
 القرآن بقوله : (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال .

( ١ ) فبت كأن حية نحيفة شديدة الفتك قد تناولتى بالعض والبهش .

( ٢ ) الأتارع هم بنو قريع بن عوف . وكان منهم مرة الذى وثى به عند النعمان .

كلوا من رزق ربكم واشكروا له . بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل) .

نزلت هذه الجماعة من أزد اليمن فى تهامة قرب ماء كان يتجمع بعد هطول المطر - وقرب آبار دائمة الماء طول السنة . وكان هذا الماء يسمى « ماء غسان » فعرفوا عند ذلك بأزد غسان .

وكان أن قلت مياه غسان ، ثم جفت . وهددت قبيلة أزد غسان هذه بالهجرة ، وبموت الحرث والنسل ، والزرع والضرع . فأخذوا يرتحلون شمالاً إلى أطراف الجزيرة العربية . وذلك حوالى سنة ٤٠٠ م وهناك حاولوا الإقامة بأهليهم ومواشيهم . وكانوا أهل بأس وشدة ، زادتهم صعوبة الحياة ، وزادهم شغل العيش متانة وتحملاً للمصاعب . فلما أزدادوا الاستقرار فى تلك المنطقة الواقعة بين بلاد الشام ( سوريا ولبنان ) وشمال الفرات من أطراف الجزيرة العربية قاومهم هناك سكان من البدو كانوا يسمون « الضجاعة » ، وكان مقرهم فى الجنوب الشرقى من دمشق قريباً من الطرف الشمالى لطريق القوافل العظيم الذى كان يربط اليمن بالشام . وقامت مناوشات وحروب بين بنى غسان والضجاعة ، انتهت بانتصار الغساسنة على أعدائهم واستقرارهم فى تلك الأرض الجديدة . فأخذوا يمدون نفوذهم شمالاً وشرقاً وغرباً . ولم تكن تلك النواحي التى

استقروا فيها صحراء مجدبة كما هي الآن ، ولكنها كانت أراضي صالحة للزراعة . ذلك لأن جبال حوران التي يبلغ ارتفاعها نحو ألفي متر كانت مهبط الأمطار الغزيرة ، وكانت هذه الأمطار تنساب منها إلى الأودية المحيطة . فأفاد الغسانيون من هذه الأمطار . وحولوها إلى مساق للأراضي التي زرعوا فيها الحبوب والبساتين . وهكذا ظهرت في تلك النواحي بشائر العمران والحضارة والرخاء ، تلك التي لم تكن معروفة في الأماكن الصحراوية بالجزيرة العربية .

وفي حوالي سنة ٥٠٠ م ظهر من بين الغساسنة رجل قوى العزيمة ، حكيم الرأي . يصلح للقيادة يسمى جفنة . وصار ملكاً عليهم ، وأسس مملكة الغسانيين .

وكانت الدولة الرومانية قد مدت نفوذها على بلاد الشام وفلسطين ، وكانت تجارتها في أسواق دمشق والقدس تحملها القوافل الذاهبة إلى بلاد اليمن جنوباً عن طريق مكة شتاء ، وإلى هذه الأسواق تفد القوافل من الجنوب صيفاً . وكانت هذه القوافل في رحلة الشتاء والصيف معرضة لغارات البدو من صحارى الجزيرة العربية<sup>(١)</sup> . وكان هؤلاء البدو يطعمون أيضاً في الوصول إلى سهول الشام الحصيبة ، وأعلى وادي الفرات ، وهي داخلة ضمن أرض الإمبراطورية الرومانية التي كانت عاصمتها القسطنطينية .

(١) جاء في القرآن الكريم ( لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ) .

فكيف يمكن تجنب غزوات هؤلاء البدو وهجومهم الذي لا ينقطع وهم قوم خفيفو الحركة ، سريعو الكر والفر ، يجدون في الصحراء الواسعة خلفهم - حينما يتقدمون في غاراتهم - ملجأ متشعب الطرق التي لا يعرفها أحد غيرهم . لذلك فكر أباطرة الرومان في أن يستعينوا بملوك غسان ، فيعقدوا معهم اتفاقاً على أن يدفع الغساسنة عنهم غارات هؤلاء البدو : وقبل ملوك الروم هذا الاتفاق . وبذلك سادت بين الدولة الرومانية ومملكة الغساسنة علاقات الود والمعونة ، وتأثر الغسانيون بحضارة الرومان ، فبنوا الدور ، وحفروا مجارى المياه لتسقى المزارع والبساتين ، وشيدوا المدن التي لا تزال آثارها باقية حتى الآن . ومنها تدمر وجلق ودمشق .

وكان لملوك غسان قصور فاخرة فخمة ، وحراس ، وجنود ، ومظاهو أبهة وعظمة كتلك التي كانت لملوك الحيرة ، والتي عرفنا شيئاً عنها في عهد النعمان الثالث ( أبى قابوس ) . ولما كان الرومانيون نصارى دينهم المسيحية ، وكان الغسانيون أصدقاء لهم ؛ فقد اعتنق هؤلاء الغسانيون المسيحية أيضاً . ولذلك نسمع أهل لبنان والشام من المسيحيين يقولون : « نحن عرب ، وأقدم في العروبة من العرب الذين وفدوا إلى هذه البلاد بعد الإسلام . لأننا غسانيون ، من أهل اليمن . فنحن أعرق في العروبة » . وهم على حق فيما يقولون بعد أن عرفنا كيف جاء الغسانيون إلى نواحي الشام التي كانت تطلق في ذلك الوقت على ما نسميه نحن الآن فلسطين وسوريا ولبنان .

وتولى ملك غسان عدد من الملوك اختلفوا قوة وضعفاً . وكان منهم ملك قوى الشكيمة اسمه الحارث الثاني بن جبلة كَوْن جيشاً قوياً مدرباً ساعد الروم على استتباب الأمن في تلك المنطقة ، كما ساعدهم في حروبهم ضد الفرس المجاورين لهم ، والمنافسين لهم في التجارة والنفوذ ، والراغبين في الاستيلاء على بلاد الشام .

وكان أن تولى ملك بني غسان في حوالي سنة ٥٨٠ م ملك « اسمه المنذر بن الحارث بن جبلة » ، فوقع بينه وبين إمبراطور الروم شيء من الخفاء وسوء التفاهم ، مما دعا المنذر هذا إلى الإغارة بجيشه على سوريا ومحاربة جيش الروم . فما كان من إمبراطور الروم إلا أن استرضاه وصالحه ثم دعاه إلى زيارته في القسطنطينية . وهناك قبض عليه وأرسله منفياً إلى صقلية . .

ثار أبناء المنذر هذا ضد الروم — وكانوا أربعة — وأخذوا يغيرون على أطراف الإمبراطورية الرومانية ، ويلجأون إلى الصحراء كلما طاردهم جيش الروم ، وتغلب عليهم . وكانت هذه الفترة من تاريخ الفسانيين ( ما بين سنة ٦٠٠ وسنة ٦١٠ ) فترة اضطراب ، وحوادث مستمرة . فهم كانوا الجبهة التي تقف ضد عرب الصحراء الذين كانوا يغيرون دائماً على القوافل التجارية الذاهبة إلى أرض الروم أو الراجعة منها ، وكانوا كذلك الجبهة التي تصد عرب الصحراء حينما كانوا يهاجمون المدن

الرومانية والأراضي المعمورة الرومانية ، والبساتين والمزارع في بلاد الشام التابعة للرومان . وكانوا إلى هذا جميعه ينضمون إلى الجيش الروماني في حروبه ضد الجيش الفارسي ، لما كان من العداوة الدائمة بين إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الرومان المتجاورتين .

وكان النعمان الثالث « أبو قابوس » ( ٥٨٠ - ٦٠٢ ) معاصراً لهذه الحوادث والاضطرابات التي تجرى داخل حدود مملكة غسان . ومن قديم الزمان كان العداء مستحكماً بين المناذرة أهل النعمان والغساسنة ، لأن الأولين كانوا أصدقاء الفرس وحلفاءهم ، وكانوا يقومون بخدمات للفرس تشبه تلك الخدمات التي يقوم بها الغساسنة للروم . فكانت المنافسة إذاً قوية بين المناذرة والغساسنة . كان الأولون يحاربون إلى جانب الفرس والآخرون إلى جانب الروم . وكان الأولون مرابطين على حدود مملكة غسان خشية أن يغيروا على أرض الحيرة . وكان جيش الحيرة مكوناً من فرقتين عظيمتين : إحداهما فارسية وتسمى « دوسر » والثانية عربية وتسمى « الشهباء » .

ولم تكن الاضطرابات القائمة في داخل حدود الغساسنة ، والغارات التي يقوم بها أبناء المنذر بن الحارث ضد إمبراطور الروم - المسمى طيباريوس الثاني - لتصرف اهتمام جيش النعمان بن المنذر عن العناية بالحدود والمحافظة عليها . لا بل إن الفرس أصدقاء النعمان قد طلبوا منه

في ذلك الوقت أن يُرسل بكتابه للإغارة على أراضي الغساسنة والاستيلاء عليها . فكانت كتاب أبي قاموس إذاً مرابطة على حدود الغساسنة تنهز الفرصة للإغارة . وزاد في أمل هذه الكتاب في الغزو ما حدث من حرب بين إمبراطور الروم - طياريوس الثاني - وبين أبناء المنذر الغساني الأربعة ، وهزيمة هؤلاء ، وتشت شملهم ، والقبض على النعمان الغساني وهو الأخ الأكبر لهؤلاء الأربعة ، وأخذه سجين حرب إلى القسطنطينية .

كانت إذاً هذه الفترة من تاريخ ملوك غسان فترة اضطراب وارتباك وانحلال ، انتهت بزوال ملكهم ، وباختيار كل قبيلة من سكان أرض غسان أميراً عليها موالياً للإمبراطور الروماني المنتصر ، وجميعهم يخضعون اسمياً لعامل روماني عينه الإمبراطور .

في أثناء هذه الاضطرابات ، أي في سنة ٦٠٠ م ، كانت جيوش بني غسان المتقهقرة أمام جيوش الرومان ترتد نحو أراضي الحيرة . وكانت جيوش الحيرة المرابطة على حدود غسان تصد كل من يحاول أن يتخطى هذه الحدود من الغساسنة ، أو تقبض عليه ، وكثيراً ما كانت تدخل أرض غسان غازيةً ناهية الأموال والنساء والأطفال والرجال ، لتعود بها أسلاباً ورقيقاً يباع في الأسواق .

وكانت الغارات تزداد في فصل الصيف ، لأنه فصل الجفاف ،

فالطرق صالحة للسير ، وليس بالجبال سيول أو مجارى مياه كبيرة تعطل تنقل الجيوش ، وفى الصيف عادة يكون الكلاً للخيل ، والحاصلات الزراعية التى يستعين بها الجيش المحارب فى طعامه . ولذلك كانت الغارة يقوم بها الجيش فى الصيف تسمى « صائفة » ، والغارات تسمى « صوائف » .

وفى الوقت الذى كان فيه النابغة الذيباني يزور الحيرة ، والذى غضب فيه عليه النعمان ، ولم يقبل اعتذاره ، كانت جيوش الحيرة مرابطة على حدود غسان ، وكانت « صوائف » غسان تغزو أرض الحيرة وكان النعمان أبو قابوس فى شغل شاغل بهذه الحوادث ، وبغيرها من الحوادث الداخلية التى كانت تهدد ملكه وعرشه . فقد شعر بأن إمبراطور الفرس الذى كان هو وقومه من المناذرة يدينون له بالولاء ، ويناصرونه ضد العرب والروم — هذا الإمبراطور — خسرو أبرويز — كان ينوى شراً بالنعمان .

#### ٤ — النعمان فى مجلس شرابه

فى تلك الليلة التى اجتمعت فيها حلقة من الناس حول النابغة الذيباني تناقشه الحساب ، وتجادله وتحاجه ، وتهمه بنكران الجميل ، ووجود النعمة ، والخروج على طاعة سيده النعمان بن المنذر ، كان هذا الملك

نفسه في مجلسه بقاعة السمر ، وفي حضرته وزيره - أو الرديف كما كان لقبه - والراوى ، والمضحك . وقد طلب النعمان شراباً ، فجاء الندل - وهو ساقى الشراب - يحمل صينية من ذهب ، عليها كؤوس من ذهب ، ويده إبريق من ذهب ، وتقدم من سيده . وقال :

- آبيت اللعن ؛ قهوة معتقة من كروم فارس يا مولاي ؟  
 فرفع النعمان رأسه قائلاً :

- هاتها ، ودعنا نفرق الهموم ! هه ! حياة بتمناها الرعية ويكرهها الملوك . ما أحسن الحرية ! وما أسعد الأحرار .  
 وسكت ، فقال الرديف :

- آبيت اللعن . يا مولاي ! أى نجم أسعد من نجمك ؟ وأى ذكر أعلى من ذكرك ؟ أنت سيد العرب بلا منازع ؛ لقد تفكك شمل خصومنا الفساسة ، وعمما قريب سيزول ملكهم . وسيمتد سلطانك إلى أرضهم ، وستصبح سيد المناذرة والفساسة جميعاً . وستتقرب إليك الفرس والروم .  
 - زَيْفٌ ، زَيْفٌ . ريف كل هذا . إننا نحن الملوك سجناءُ الحضارة . تخدعنا هذه المظاهر ، وهذا الترف ، وهذا البذخ ، وبريق الذهب ، وانتصارات يدفع ثمنها الأبرياء . . .  
 وصمت قليلاً ثم قال :  
 - يا ندل . . . هات القهوة المعتقة !

وطاف الندل على الحاضرين يسقيهم . وقال الراوية :

— إن جدودك يا سيدى ، أبيت اللعن ، حينما غادروا بلاد اليمن منذ ثلاثة قرون ، وجاءوا إلى هذه البلاد وجدوها قليلة العمران والسكان ، يمر بها التجار والقوافل من فارس ومن جزيرتنا العربية ، فيتعرضون للسلب والنهب . أما اليوم فما هو ذا العمران : قصور ودور ، مزارع وبساتين ، عيون متفجرة ، وأسواق جارية المياه ، تجارة نافقة ، ووفود من الشعراء يردون أعتابك — كما كانوا من قبل يقدون إلى أعتاب أجدادك ، ليخلدوا بمدائحهم مناقبك الكريمة ، وأنارك الشاملة .

فضحك النعمان ضحكة سخرية ، قائلاً :

— جدودى ! ليتهم ما قدموا إلى هذه الأرض . وليت سيل العرم ما خرب سد مأرب . لقد كانوا ملوكاً في أعين أهل البادية ، ولكنهم صنائع في أيدي أباطرة الفرس ، يحاربون معهم ضد العرب من أبناء العمومة والختولة ، ويحمون طريق التجارة لكي يطمئن التجار الفرس على قوافلهم . ويناصرون جيش فارس لكي يحارب الروم ، فينتشر بذلك نفوذ فارس في أرض الروم ، لا نفوذ المناذرة . لقد كانوا يحاربون أبناء أعمامهم من الغساسنة ، لا لأنهم يكرهونهم أو لأنهم أعداء ، ولكنها إرادة كبرى هي التي قضت بذلك . لقد كانوا ملوكاً في مظاهرهم ، ولم يكونوا أحراراً في قلوبهم .

وليتنا كنا تكافأ على ولائنا ! إن هؤلاء الملوك من الفرس ، الذين  
 نسخر خيلنا ورجلنا في حماية أرضهم - والدفاع عن حدودهم أو تخومهم  
 ليلفظون الملك منا وينبذونه نبد النواة إذا لم يجدوا فيه المولى الخاضع ، أو  
 إذا أبدى شيئاً من الاستقلال والعزة التي هي طبيعة فينا نحن أبناء  
 العرب . انظروا ماذا فعل طيباريوس إمبراطور الروم بالمنذر بن الحارث  
 الغساني ؟ لم يحترم ملكه ، أو يراع ما بينهما من عهود ، فقبض عليه  
 بلا رحمة ، ونفاه إلى صقلية . وماذا فعل بابنه النعمان ؟ إنه رهن السجن  
 الآن يقاسى ما يقاسيه المجرمون ! لا ثقة لي بالأباطرة . إنهم يُبقون علينا  
 ما دمنا نبقى على مصالحتهم ، ونحصى ديارهم .

وتناول الراوى جرعة من الخمر كانت في كأسه ، وتقدم التدل فصبه  
 خمرأً أخرى ، وشعر الراوى بصراحة من النعمان لم يألفها من قبل فأخذ  
 يقول :

— نعم يا هولاى — أبيت اللعن — إن هؤلاء الأباطرة يجازوتنا نحن  
 العرب جزاء سنار . فنحن نبني ملكهم بيجوشنا وأسلحتنا ، ونحصى  
 ظهورهم بأرواح أبنائنا . وهم لا يترددون في تضحية أمرائنا وقادتنا حين  
 يرون في ذلك صوالحهم .

قال المضحك :

— سنار ! سنار ! لا شيد القصر ولا الدار ، ولا هو بناء ولا حجار .

القصة أصلها خرافة ، وأسطورة كلها سخافة . لا النعمان ولا البؤسان  
 بنى الخورنق ولا السدير ، ولا إصطبل الحمير !  
 فابتسم النعمان وقال :

— أتجرؤ على أجدادى يا لكع . ألم يكن النعمان الأول جدى سيد  
 الخورنق والسدير ؟

— كان هو جدك العظيم يا مولاي — أبيت اللعن — ولكنه كان  
 أعور فن ينكر ذلك من الحاضرين ؟

— نعم كان أعور ، ولكنه سمح كريم ؛ ترك للرعية حرية التدين ؛  
 فجاءت النصرانية السمحة إلى الحيرة .  
 والتفت النعمان إلى الراوية قائلاً :

— ماذا يقول الناس عن الخورنق يا رباح؟ أكان حقاً بناء سنهار  
 أم قصرأ من قصور بابل بالحميلة تلك التى نستطيع رؤيتها من مكاء  
 هذا؟ ما آفة الأخبار إلا رواها . وخيال العامة ينسج من الصور ما يحلو  
 لهم أن يتحدثوا به . ليتهم لم ينسبوا إلى جدى بناء الخورنق . فهو لم يبنه  
 — على حد روايتهم — لنفسه ولا لقومه ، وإنما بناه لسيدته ، لأن إرادة  
 سيده كسرى فارس هى التى أمرت بذلك .

الراوى رباح :

— مولاي — أبيت اللعن — ما هذا يقول الناس . إنهم يقولون : كرم

النعمان الأول، وحسن ضيافته، ونبيل استقباله كل هؤلاء أوحى إليه أن يأمر ببناء الخورنق. وهم يقرنون اسم جدك العظيم بهذا العمل النبيل.

— زدنى القول، وأسمعنى روايتهم يا رباح.

— كان يزديجرد الأول، يا مولاي — أبيت اللعن — ملك فارس، وكان صديقاً لجدك النعمان الأول، يُعزّه ويرسل إليه الهدايا الثمينة من لؤلؤ البحرين، وبُسط أذربيجان، وخمور دجلة، وفتيات أرمينية. ولم يكن لكسرى يزديجرد ولد. وكان كلما ولد له طفل مات. وقد قال له الأطباء إن جو بلاد فارس، وجو عاصمتها المدائن رطب غير صحي، مملوء بأوباء الطفولة. فلو أمر الملك فبنى له قصر في الصحراء لكان أنسب لصحو الوليد. ورزقه الله ابنه بهرام جور. وخاف عليه أوبئة الجحر الرطب. وأشار عليه وزراؤه أن يُعجل ببناء القصر في الصحراء، فبعث إلى جدك، وعرض عليه الأمر. فما كان منه إلا أن تفضل، سخاء وكرماً، فأتى بسنار البناء الروماني البارح، وأمره أن يبني الخورنق. فجاء آية في الجمال وإتقان الهندسة. وكان يُطل من الجنوب على الصحراء بجوها الخفاف الصحي، ومن الشمال على بساتين الفرات وسواقيه الجميلة ذات المياه الحارية، وكانت الشمس تشرق عليه كل صباح فتغمره بضوئها ودقئها، وتغرب عنه في أفق سحري جميل. وكانت جدرانها من السمك بحيث لا تتسرب حرارة الشمس إلى داخله

صيفاً ، وكانت طنفة البارزة مسقوفة بالآجر والرخام والمرمر الذى يعكس حرارة الشمس ، فلا يشعر بها من فى داخله . وكانت تحيط به الحدائق الغناء التى جلب إليها جلدك أجمل الزهور والرياحين من بساتين فارس ، وكانت تغنى ببله الحدائق طيور جلبيت خاصة من أرض الروم والهند ، وكان يقوم على صيانة القصر خدام من أسرى الروم . فإذا جاء المساء تحول القصر إلى شعلة من الأضواء ، المنبعثة من الشموع فى كل مكان ، تعكسها المرايا الصقيلة . وتعزف القيان والمغنيات فى الأماسى والليالى عذب الموسيقى ، وتشد سحر الأغاني . فى هذا القصر - آييت اللعن - عاش الأمير بهرام جور حتى بلغ الرشد ، ثم رجع إلى المدائن .

النعمان :

- ولكن كيف جوزى سمار ؟

الراوى رباح :

- إنهم يقولون - آييت اللعن - إن هذا المهندس البيزنطى لما فرغ من بناء الخورتق تعجب الناس من حسن صنعته ، وإتقان بنائه . فقال سمار : لو عرفت أنكم تُوفونى أجرى كاملاً ، وتكافئونى على جهدى بما أستحقه لبعلته قصرأ يدور مع الشمس كلما دارت . فلما سمع منه جلدك هذا سأله : وإنك لتقدر على أن تبني ما هو أفضل منه ثم لم تبنيه ؟ ! إنك إذاً غير مخلص : وأمر به فطرح من أعلى الخورتق ،

فهوى إلى الأرض ميتاً .

المضحك :

— خرافة قديمة .

النعمان :

— صه يا لكع :

والتفت النعمان إلى وزيره مخاطباً :

— ألم يجاز إمبراطور الروم المنذر بن الحارث ملك الغساسنة جزاء سنهار؟ فإذا — ليت شعري — سيكون جزاؤنا من ملك فارس على كل ما نقدم له؟ جيوشنا على تخوم الروم تصدهم عن التقدم إلى أرض فارس . وحراسنا يراقبون حركات البدو خشية أن يعتدوا على القوافل . وكسرى يتقاضى الضرائب من القوافل التي تدخل بلاده من أرضنا . ثم هو غارق في هوه ومتمعه !

وساد صمت لم يعرف أحد من الحاضرين متى يزول . ولكن النعمان عاد يقول :

— لقد مضى من الليل نصفه . يا عصام ، غداً سنخرج للصيد . فأحبر « حازم » رئيس الحرس ، ودعه يُعد جوادى « المرعاد » إعداد الصيد . وليكن في صحبتي أمراء بيتى . صاخب ، وناظم ، وعساف ،

وفیصل والأميرة كوثر .

وهمّ النعمان بالانصراف فهمّ الحاضرون . وجرى عصام ليفتح باب « قاعة السمر » . وقبل أن يتقدم النعمان نحو الباب سُمع صوت النفير . لقد كان ذلك النفير الذى سمعه الناس وهم ملتفون حول النابتة الذبياني يجادلونه ويناقشونه . وكان هذا النفير طراداً من برج « باب الروم » . ونظر النعمان إلى من حوله ، ثم وجه الحديث إلى الرديف قائلاً :

— فيلقٌ يعود الآن من حدود الروم ومعه أسرى ! هل قام عراك بين رجالنا وجنود الروم ؟  
فأجاب الرديف :

— إن نعمة النفير تفيد ما يقوله مولاي . وهى تشير إلى رجوع فيلق ومعه أسرى بينهم أمير أو أميرة .  
وقبل أن يتم حديثه دخل أحد الحراس ، وتحدث إلى عصام . فتقدم عصام من النعمان قائلاً :

— إن بين الأسرى ، يا مولاي — أبيت اللعن — فارسية . وهى تقول إنها أميرة ، كانت أسيرة عند الروم .  
— أكرموا ضيافتها الليلة ، وعينوا لها من الجوارى من يقوم على رعايتها ومصالحها ، حتى نستطلع أمرها غداً . أحضرها عند ما يجتمع المجلس مساء الغد .

وخرج الملك ، ووراءه رجال مجلسه . ثم انصرفوا .

## ٥ - فن الصيد عند العرب

لم يكن الصيد عند العرب لهواً أو عبثاً ، ولكنه كان فناً من الفنون التي يعتز لها العربي ، ويثقف بها من صغره ، كالرماية ، وركوب الخيل . وكان الطفل العربي من الأسرة الموسرة ، وأبناء الأمراء والملوك ، يتلقون هذه الفنون على يد مدربين مهرة ، كمدربي السباحة ، والتنس ، والكرة في عصرنا الحاضر .

وكانت أدوات الصيد عندهم عادة القسيّ والنبال ، توضع القسي في جعبة أو جعبات ، والنبال في جعبة أو جعبات . وتختلف القسي طولاً وقصراً كما يختلف الوتر في الطول والقصر . وكانت النبال تختلف طولاً وقصراً ، وتؤخذ من أنواع مختلفة من الأشجار .

وكان الشاب يتدرب منذ صباه على استعمال هذه الأقواس ؛ لأن لكل نوع من الصيد قوساً يلائمه ، ونبالاً تلائمه . فبقر الوحش مثلاً يحتاج إلى قوس كبير ونبال كبيرة على حين يحتاج الغزال الصغير إلى قوس ونبال صغيرة .

ومن أدوات الصيد الحراب . وكانت هذه تستعمل لصيد الكواسر من الأسود والنمور والضباع ، حينما يكون الصائد قريباً منها . وكان

العرب يصطحبون معهم للصيد الصقور ، والكلاب يدرّبونها على أعمال الصيد منذ الصغر .

أما الصقور فكانت فراخها تؤخذ بعد فقسها من الأعشاش . يذهب عربي خبير إلى حيث يفقس بيض الصقور . والصقور عادة تبنى أوكارها في قمم الجبال وقمم الأشجار العالية البعيدة عن الناس . يذهب هذا الخبير ومعه قطع من اللحم مختلفة الأحجام ، فيربطها في أحجار ثقيلة قريبة من أوكار الصقور . فعندما ترى الصقور قطع اللحم بنظرها الحاد تترك أوكارها ، وتسقط عليها لتختطفها . وكلما حاولت رفعها وجدتها ثقيلة . فتشغل عندئذ بأكلها أو تقطيعها بمخالبها ومناقيرها . وفي هذه اللحظة يصعد العربي الخبير إلى وكر الصقر ليأخذ منه الفراخ التي فقسّت ، ثم ينزل ويجري بها سريعاً .

تأتي عندئذ عملية التدريب . فلمدرّب الصقور على الصيد ساحة واسعة ، ولديه صقور كبيرة مدربة تلازمه ولا تفارقه . فعندما يكون عنده فرخ صغير يريه أولاً حتى يظهر ريشه ويستطيع الطيران . فإذا ما جاء صياد يريد أن يشتري صقراً للصيد اختار فرخاً صغيراً واشترك مع المدرّب في تدريبه .

يبدأ المدرّب فيطلق عنزاً أو غزالاً ، ويطلق وزاءه صقراً مدرباً ، وفي الوقت نفسه يكون مع الصياد الفرخ الصغير ينظر ويلاحظ ما يحدث .

فيطير الصقر المدرب ويجرى وراء الفريسة ويخفق فوقها بجناحيه حتى يعرقل جريها . عندئذ يجرى المدرب ويعصطاد هذه الفريسة . كل هذا يحدث والفرخ يلاحظ ، والصيد ممسك بالفرخ . وفي المرحلة الثانية يطلق المدرب الصقر وراء الفريسة ويطلق الصيد فرخه الصغير . فيقوم الفرخ الصغير بمطاردة الفريسة والخفان فوقها بالطريقة نفسها تلك التي اتبعها الصقر المدرب ، مشتركاً معه في متابعة الفريسة . حتى تضطرب الفريسة من خفتان الأجنحة السريع القوى ، ولا تستطيع الحركة . وهكذا تُكرّر العملية عدة مرات ، حتى يطمئن كل من المدرب والصيد إلى أن الفرخ الصغير فهم العملية .

وفي المرحلة الثالثة يقوم الصقر الصغير وحده بهذه العملية — عملية المطاردة — وذلك بأن يقبض عليه الصيد بيده ، ويطلق المدرب الفريسة . عندئذ يطلق الصيد الصقر الصغير وراءها . فإذا اطمأن المدرب والصيد إلى أن الصقر الصغير قد تعلم وظيفته أمكن أخذه للصيد ، وإلا دُرّب مرات أخرى .

وعند ما يتأكد المدرب أن الصقر الصغير قد أتقن عملية المطاردة يعطيه للصيد — نظير ثمن مناسب — فيأخذه الصيد إلى منزله . فإذا ما أراد الخروج للصيد على ظهر جواده أخذ معه الصقر . وعادةً يضع على رأس هذا الصقر طاقة لتمنع عينيه من رؤية الأشياء حوله ، حتى

يصل الصياد إلى مكان الصيد، لأن الصقر إذا ما رأى وهو في طريقه إلى مكان الصيد أنواعاً من الحيوانات قد ينطلق وراءها كعادته .

وقد يتقف الصقر على كتف صاحبه ، أو أمامه على الجواد . فحالما يرى الصياد غزالاً أو أرنباً أو حيواناً برياً يريد صيده يطلق عليه النبله . وفي الحال ينطلق الصقر وراء النبله مطارداً الفريسة بالطريقة التي تدرب عليها . فيسرع الصياد وهو على ظهر الجواد إلى الفريسة ليرميها مرة أخرى بالنبله ، أو ليقبض عليها بنفسه إن كانت في ارتباك شديد ، ولا تستطيع الجرى .

وتتم عملية الصيد والمطاردة هذه في سرعة ومهارة وخفة بحيث يكون الصياد والجواد والصقر كأنهم فريق واحد متعاون على مطاردة الفريسة ، والانطلاق وراءها حيث تذهب .

أما الكلاب فتعتمد في معرفة مكان الفريسة على حاسة الشم بدلاً من حاسة البصر التي يعتمد عليها الصقور . وتُدرب الكلاب كما تدرب الصقور . ومهمتها هي متابعة الفريسة، ومطاربتها ، وإجري وراءها وأمامها . والنباح المتواصل والعض في السيقان . وبذلك تضطرب الفريسة، وترتبك ، ولا تستطيع الجرى بعيداً . فتقف، وعندئذ يتقدم إليها الصياد ليرميها بالنبال، أو للقبض عليها .

وقد تدخل الفريسة في الغابات والأحراج هاربة مخفية، فتبعها

الكلاب ، ويعرف الصياد مكان الفريسة بتتبع الكلاب وسماع نباحها .  
 هكذا كانت العادة عند العرب منذ قديم العصور . وما زالت بعض  
 القبائل العربية - كما في الكويت الآن - تستخدم الصقور في الصيد .  
 وفي أوروبا تُستخدم كلاب الصيد لمطاردة الأرانب ، والثعالب ،  
 والغزلان في الغابات ، مشتركة مع الصيادين .

## ٦ - النعمان يخرج للصيد

مع مطلع الفجر التالى للأمسية التى قضاهها النعمان بين حاشيته في  
 «قاعة السمير» كان الفريق الذى سيصاحبه في الصيد واقفاً في ساحة  
 القصر . وقد تهيأت الخيول النارحة عليها سروج جيدة الصنع من الجلد  
 والقطيفة وكان هناك غلمان يحملون أدوات الصيد : جعبات القسي  
 والنبال ، وآخرون قد وقفوا وعلى أكتافهم صقور الصيد ، ويجوارهم  
 كلاب ضامرة الجسم ، دقيقة السيقان ، خفيفة الحركة والعدو .  
 متندرة متأهبة ، كأنها على موعد مع الحرب ، هى كلاب الصيد .

أما ذلك الفريق فكان يضم الرديف - الوزير عيلان - ومضحك  
 الملك ، والأمراء الذين طلب الملك أن يرافقه ، وبينهم الأمير فيصل بن

أخيه وزوجه الأميرة كوثر البارعة في الصيد ، والتي كان النعمان يدعوها عادة لمرافقته في مثل هذه الحالات .

وإلى جانب هذا الترياق جماعة من الحرس النعماني ومعهم خيولهم ، وعلى مسافة من الحرس ، وفي ركن من الساحة . وقف جماعة الطهارة ، وخدم المائدة ، وستاة الملك . ومعهم خيول محملة بالأطعمة والمؤونة .

وأمام المدخل الخاص بالجناح الذي كان النعمان يقيم فيه ، وقف « المرعاد » جواد النعمان الأشقر ، وقد ارتفع رأسه في وقار وهيبة : وبرز صدره كأنه صدر أسد قوة ومثانة ، ودق خصره ، وعلا عجزه . وبدأت سيقانه وهي تصغر وتندق بالتدرج من الأفخاذ إلى الحوافر كأنها سيقان من الفولاذ . وكان فوق ظهر « المرعاد » سرج من القטיפعة بطائنه من اللبد الناعم . وأطراف السرج مزخرفة بخيوط من الذهب . وبجانب « المرعاد » وقف السائس الملكي استعداداً لقدوم سيده .

ظهر النعمان من المدخل الخاص بهمهم « المرعاد » مهممة ترحيب وحماسة . وحيا النعمان الحاضرين فردوا عليه التحية . وتقدم السائس الملكي فساعدته على ركوب الجواد . ثم ركب الأمراء . وخرج الجميع من « الباب النعماني » متجهين نحو الصحراء عند أطراف الحيرة . حيث تكثر الأطباء . وحمير الوحش . والأبقار البرية . وحيث الغابات والأحراج التي تختفي فيها هذه الحيوانات .

سار النعمان وخلفه الحاشية ، وبجواره الأميرة كوثر يلاطفها ويداعبها . ثم وحمل الفريق إلى مكان رأى الملك أنه يصلح للنزول . فنزلوا . في ذلك المكان كانت عين تنحدر مياهها كالنفضة من صخرة عالية إلى واد فسيح ، فتجرى مياهها بعيداً في ذلك الوادى حيث نختى . وكانت قمة هذه الصخرة مضطربة منبسطة واسعة . وهناك على تلك المضطربة أمر النعمان أن تنصب الخيام . فبدأ الغلمان العمل ، وقامت قبة عالية بيضاء من الصوف النقي ، فرشت أرضها بالبسط العجمية . ووضعت على جوانبها حشياً يتكى عليها الجلوس . وإلى جانب هذه القبة أقيمت قبة أخرى للمائدة والشراب .

وبدأ الصيد . وكان النعمان مغرمًا بالصيد بالأنشطة يستعملها في مطاردة الفريسة ؛ فيلقى بعروتها حول رقبة الحيوان . ويندفع الحيوان هارباً . عندئذ يتمسك النعمان بالطرف الذى فى يده قوياً شديداً . وبذلك يضيق الحناق على الحيوان الذى لا يلبث أن يشعر بالاختناق . فيستسلم : وهنا يسرع غلمان الملك وتابعدوا ليقبضوا على الصيد .

هذه الطريقة فى الصيد تحتاج إلى خفة . ومهارة . وقوة . وبراعة من الصائد . وكان النعمان لما مجيداً .

وعند ما بدأ الصيد اندفع النعمان على ظهر « المرعاد » بجرى هنا وهناك . وعلى كتفه صقر الصيد . وكان « المرعاد » كالبرق أو المسهم

سرعة وبضاء . وانتشر حول النعمان الأمراء ؛ كل يصيد بطريقته .  
وفجأة صاح أحد الأمراء :

— زه ! زه ! مرحى يا بن الأكرمين ، ويانسل المناذرة . أيها الأمير

فيصل !

لقد اصطاد الأمير فيصل غزالا . وهو صياد ماهر كزوجته الأميرة  
كوثر ابنة أخت النعمان ، التي تعرف إليها في خريجة كهذه من خرجات  
الصيد . واجتمع الكل حول هذا الغزال . وقالوا : افتتح ميمون . قال  
الملك :

— هذا غداؤنا .

وتقدم الخدم والطهاة فأخذوا الغزال . وانصرفوا ليعدهوه للغداء . ولم  
في إعداد لحوم الصيد حينما يكونون في الحلاء طريقة طريقة .

أخذ أحد الخدم يحفر حفرة كبيرة تسع الغزال مرتين . وذهب خدام  
آخر فجمع قدراً من الحطب . على حين قام خدام ثالث بذيح الغزال ،  
وسلمحه ، وتنظيفه . ووُضع الحطب في الحفرة ، وأشعلت فيه النار حتى  
صار جمرأ . فوضع الغزال فوقه . وفوق الغزال رُصَّ قَدْرٌ من الحطب  
والحشب . فأخذ الحطب والحشب في الاشتعال والاحتراق حتى صار  
جمرأ . عندئذ حثوا عليه الرمال ، وتركوه .

استأنف المليك ورجاله الصيد . ومن بعيد لاح حمار وحش . ولخظه

النعمان فاندفع نحوه على « المرعاد ». وكان الحمار يعدو في سرعة البرق ، فيتبعه المرعاد . ويتبع رجالُ الحاشية المليك . وطوح النعمان الأنشودة في الهواء ، وتابع الفريسة . ودخل حرجاً من الأحراج ، وخرج منه بتابع فريسته وظلت الحاشية ورائه هكذا . والصقور والكلاب تطارد الفريسته حتى تتمكن من قذف الأنشودة ، فالتفت العروة حول رقبة الحيوان الذي اندفع إلى الأمام في قوة وعنق وكفاح . وظل يقاوم العروة . وكانت الدفعة قوية فجذبت النعمان ورائها ، فسقط على الأرض . غير أن طرف الحبل كان مربوطاً إلى سرج المرعاد . فلم يستطع الحمار أن يقاوم طويلاً ، وهوى مستسلماً . وجرى الأمراء إلى النعمان فرفعوه . ونظر هو إليهم باسمأ يقول :

— إننى في سلامة ، ولم أصب بسوء !

فهال الأمراء ورجال الحاشية :

— مرحى ! مرحى ! سيد العرب . حفظتك الأقدار : وأخطأك المكروه .

وقام النعمان ، وقد هياً له رجاله المرعاد ، فاستوى عليه وهو يقول :

— لعل هذا تفسير رؤياى التى رأيتها ليلة أمس .

ولم يزد على هذا ، فسكت من حوله .

ورُبط حمار الوحش ، وحمل على ظهر أحد الخيول . وعاد الجميع

إلى حيث نصبت الخيام . فلما وصلوا كان الغداء مهياً : لحم حنيد من الغزال ، وخبز قديد ، وزيتون مخلل في النبيذ ، وأعشاب وتفتح ، وخرمعة .

وجلس الجميع للغداء .

ولما انتهوا من غدائهم انتقلوا إلى قبة الاستراحة حيث جلس كل على حشية . وبدءوا يسمرن ، ويذكر كل بعض تجاربه الماضية في الصيد والطراد . وكان هواء الحراء يهب - في تلك البقعة المرتفعة - لطيفاً عليلاً جافاً . وكانت إغفاءة قصيرة ، نهضوا بعدها قبيل العصر ليستأنفوا السير راجعين إلى الحيرة .

## ٧ - حلم وتشاؤم

في الربع الثاني من الليل انعقد مجلس النعمان في « قاعة السمر » . وكان من بين الحضور الرديف عيلان ، والراوى ، والمضحك ، والأمير فيصل ، والأميرة كوثر ، والمترجم الفارسي - على اليمين - والمترجم الروى على الشمال ، وحسام قائد الكتيبة التي عادت في الليلة الماضية من تخوم الروم .

وبدأ النعمان الحديث قائلاً :

— يا عصام ! علىّ بإسحاق البابلي المنجم ! أين الساقى ؟  
واختفى عصام لحظات ثم ظهر . وجاء الساقى ، وأخذ يمر بالشراب  
في كئوس من فضة وذهب وبينما الجميع يسمرون ويشربون إذ ظهر  
إسحاق البابلي ، واتجه نحو النعمان حتى وقف بين يديه . ثم انحنى  
فلمس نعلي الملك بأصابعه ، ووضعها على رأسه قائلاً :

— سعدت مساء ، أبيت اللعن ، وسعد كل من بحضرتك .  
فقال النعمان :

— اجلس يا إسحاق . لأمر هام دعوناك . ودونك الشراب !  
وسادت لحظة صمت قال بعدها النعمان :

— رأيتني الليلة الماضية في المنام ، وكأن أسداً مفترساً قد هجم علىّ  
في تلك القاعة . فهمت أن أقاومه بسيفي هذا ، ولكنه كان قوياً عنيفاً .  
قبض على السيف بأنيابه ، وضربني بكفه ومخالبه ضربة أطارتني من هذه  
الحجرة فاستيقظت وجسمي يرتعد فرعاً لحوّل هذا الحلم .

وعلت في المجلس أصوات مرتاعة ، من حناجر متلجلجة ، في  
نعمة مضطربة :

— سلمت ونحن فداؤك ! أبيت اللعن ! رعنتك العناية الربانية ،  
وأزهر نجمك !

وقبل أن يفتح المنجم فمه ، أو ينبس ببنت شفة ، قال الرديف :

— إن أذن لي مولاي تكلمت .

فأجاب النعمان :

— ومن في المجلس أحق منك بالكلام يا عيلان ؟ وساد صمت .

فقال الوزير :

— أعز الله مُلكَ مولاي . وأيد مجده . إن بلادنا في عصر زاهر :

فالتجارة نافقة . والتوافل والطرق آمنة مطمئنة . والخيرات كثيرة .

والمزارع عامرة . والبساتين مشمرة . ومقامك مقام طاعة وتقدير . وحمد

وثناء . يفتد إليك الشعراء من كل فج . ومن كل قبيلة عربية . وقف على

بابك ومدحك النابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت ، والأعشى . وليد بن

ربيعة . والربيع بن زياد العبسي وغيرهم .

أما جيروشنا على تخوم الروم والغسانيين . فظافرة منتصرة . وبالأمس

رجعت كتيبة وبعها أسرى الروم والغساسنة . وأما حلخاؤنا من الفرس

فنحن معهم على خير حال ؛ ولاء متبادل ، وتعاون وتهاد .

وإنّ ما جرى اليوم لك يا مولاي — أبيت الاعم — أثناء الصيد دو

تفسير حلم الليلة البارحة . ولعل إسحاق البابلي يشاركني هذا الرأي .

فالتفت اسحاق المنجم إلى الوزير سائلا :

— ما الذي حدث اليوم ؟

— حدث أن خرجنا للصيد والطراد . . .

وقاطع مضحك الملك قاتلاً :

— وصدنا غزالا فأكلناه . وكان طعمه لذيذاً ، فلم نترك منه إلا العظام . . .

وابتسم الحاضرون ، واستأنف الوزير حديثه :

— وطارد المليك حمار وحش عنيف ، ورمى الأنشطة عليه ، فطوقت عنقه . ولكن الوحش اندفع في انطلاقه فتقاومه المرعاد ، واختل توازنه . ومال المليك عن ظهر الجواد ، فتلقته أمنا الأرض إشفاقاً منها وعطفاً ، ولم يمس بسوء .

قال إسحاق المنجم :

— هذا يا مولاي — أبيت اللعن — تفسير رؤياك . إن حمار الوحش هو الأسد . والمرعاد يرمز إلى الكرسي الذي تستوى عليه الآن . وهبوطك من على ظهره يفسر ما رأيته في المنام من خروجك من الحجرة بعد هجوم الأسد عليك . أما الخاتمة فيمن " وسلام ؛ فلقد تلقتك أمنا الأرض وحمتك ، وأحاطت بك كما يحيط بك رجالك وشعبك . لقد فسر الواقع الرؤيا .

فقال النعمان في صوت حزين :

— قلبي يحدثني بمستقبل غامض ، ومخاطر لا تعرفونها . ولا أشعر بالراحة أو السعادة منذ رؤيا البارحة . . .  
وهنا سمع صوت الأميرة كوثر تقول :

— لعل ما حدث اليوم هو نتيجة لشعورك — يا خالى ويا طويل  
العمر — بالقلق والضيق . فنحن فى حياتنا خاضعون لأفكارنا وشعورنا ،  
وكثيراً ما يتشكل سلوكنا وتتشكل أعمالنا لتناسب أفكارنا . ولقد رافقتك  
السلامة فى يومنا هذا ، وسترافقتك فى الغد .

واتجه إليها النعمان قائلاً :

— أمنية طيبة يا بنيتى ، ليقبلها منك رب السماء ، ولتكن فأل خير  
وبركة . ثم نظر إلى حسام قائد الكتيبة وقال :

— وأنت يا حسام ما وراءك من أخبار التخوم ؟ وماذا قدمت به من  
أسرى الأعداء والأصدقاء .

قال حسام القائد :

— إن أمرت يا سيدى ، أبيت اللعن — استحضرت تلك الأميرة  
التي أسرناها منذ بضعة أيام . لقد كانت فى عربة مع أحد القواد الرومان  
حينما هاجمت فصيلة من جنود الرومان النافرين من الغساسنة ، وطاردهم  
فدخلوا أرضنا . فلما ذهبنا لنطرد الغساسنة وجدنا الفصيلة الرومانية فقاتلناها  
ولحقنا بها ، وأسرنا من فيها .

— ومن كان فيها ؟

— قائد رومانى ، وتلك الفتاة التي تدعى أنها أميرة .

— وأين القائد ؟

— لقد انتحر يا مولاي . لقد أموى على حنجرتيه بسيفه فقطع أحد مشرايين ، ولم يلبث أن فارق الحياة . وجاء من الجيش الرومانى من استردوه . أما الأميرة فقد احتفظنا بها تحت الحراسة كما أمرت .  
— إلى بها .

وهنا خرج عصام . وبعد هنيهة فُتح الباب ودخل حارسان بيدهما سياط ، وبينهما فتاة فى نحو التاسعة عشرة من العمر ، بيضاء البشرة ، محمرة الوجنتين ، ممشوقة القوام ، سوداء الشعر ، نجلاء العينين . ولم يبد عليها خوف أو فزع . وسارت حتى وقفت جانباً أمام النعمان بحيث يراها ولا تحجب عنه أحداً من الحاضرين . ووقف الحارسان خلفها .  
قال النعمان :

— ما جاء بك إلى أرضنا أيتها الفتاة ؟

فأجابت فى لكنة رومية !

— إننى لم أدخل بلادك غازية أو معادية أو متجسسة ، ولكنى أميرة فارسية ، وابنة أمير . وأهلى من أسرة الملك . لقد كنت ضحية الحرب التى قامت على الحدود منذ ست سنوات بين جيشنا الفارسى وجيش الروم وكان والدى القائد منوجهر يرأس جيش فارس . فلما تنهقر الجيش أمام جيش الروم أبى والدى أن يفر من المعركة ، وبرز للقائد الرومانى فبارزه ، وجرح فى هذه المعركة . فلما رأى رجاله ما صار إليه أغاروا مرة أخرى

على كتيبة الروم انتقاماً وكرهاً ، ولكن الروم كانوا أقوى وأكثر عدداً  
فهزموهم ، وأسروني فيمن أسروا . وحملَ والدي جريحاً إلى البلاد حيث  
مات . أما أنا فكنت من نصيب ذلك القائد الروماني الذي انتحر . لقد  
كنت سرينه وحظيته ثم زوجته .

— وكيف جاز له أن يتزوجك .

— إن الرومان لا يتزوجون من غير الروميات الأحرار . ولكنني  
كنت أميرة وشرف أسرتي لا يقل عن شرف أسرته . ولذلك تزوجني .

— هل كان والدك الأمير منوجهر ؟

— نعم هو والدي . وكان قائد الجيش الفارسي .

.. وما اسمك أيتها الأميرة .

— اسمي شاهناز .

— وإذا فأنت تتكلمين الفارسية ؟

— نعم وأغنيها . نعم أغني لغتي لأنها كل ما بقي لدي من أمي

وذكريات بلادى .

— وأى آلات الموسيقى تلعبين ؟

— القيثارة .

وهنا التفت النعمان إلى وزيره وقال :

— أجلسوها وأحضر لها قيثارة لتغنيننا .

وفى لمح البرق خرج عصام ، ثم عاد ومعه قيثارة ناوفا الأميرة  
« شاهناز » . فأخذتها وبدأت تغنى وتقول :

أز او دورى مكن زيرا عَزَلت أورا شعله ور ميکند  
حقیقت را کفتم ولى او کوش نمیدهد

أورا باندازه إى سرزنش کردم که بأو زبان رسانید  
در صورتیکه بتصور من سرزنش برای او سودمنداست  
تورا کشوری دادم ولى سیاست تو تغییر نکرد

کسیکه ملک خودرا درست إداره نکند از دستش میروند  
وكان هذا الغناء الفارسی معناه بالتقريب ما قاله الشاعر الأندلسی  
ابن زریق :

لا تعذليه فإن العذل يولعه      قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه  
جاوزت فى لومه حدّاً أضربّه      من حيث قدّرت أن اللوم ينفعه  
أعطيت ملكاً فلم تحسن سياسته      كذلك من لا يسوس الملك ينزعه  
وكان أن استمع الحاضرون إلى غنائها وتوقيعها الجميل ، ولكن لما  
وصلت إلى البيت الأخير :

أعطيت ملكاً فلم تحسن سياسته      كذلك من لا يسوس الملك ينزعه  
ظهر على وجه النعمان الغضب والثورة ، وقال فى صوت مهدهج حاد :  
— أهكذا تغنين يا حمقاء ! لقد قلتها الآن . أبعدوها عنى .

وصحب كلام النعمان هذا زججةً واحتجاج صاحب من الحاضرين .  
فهوى الحارسان عليها بالسياط ، وألقت الفتاة بالقيثارة على الأرض  
وصارت تدافع بيديها عن نفسها وتصرخ ، وتلقى الساط بذراعيها .  
ولكن النعمان هدأ وتنبه لما حدث فقال :  
— خلوا عنها ، وأزيلوها من هنا .

فحملت في الحال إلى خارج القاعة ، وساد صمت لم يبدده إلا  
صوت المضحك يقول :

— هكذا يكافأ المغنيات على قدر جمالهن وقدر غناهن . كل من  
يقضى للملك يناله منه العطاء . ملك كريم وعطاء كريم !  
ونبض النعمان وفي وجهه حدة وشدة ، وهو يقول :

— لما تفسر الرؤيا بعد . . إن القدر يحجب لنا المجاهيل . ومن يدري ؟  
وتقدمت الأميرة كوثر من الملك وتناولت يده اليسرى ، وقبلتها  
قائلة :

— نعمت حالا . وهدأت بالا أيها الخال المليك . نحن الآن في  
الهزيع الثالث من الليل . وأنت الساعة تحتاج للراحة والنوم .  
كانت تقول هذا وهي تسير بجانب النعمان حتى خرج من قاعة  
السمير . وهناك أمام باب القاعة نظر إلى من كان حوله وقال :  
— عموا مساءً أيها الصّحب ، وسعدت ليكنكم .

فأجابوا :

— نعمت مساء ، أبيت اللعين ، وسعد ليلاك وصباحك .  
وانصرف النعمان ومعه الأميرة كوثر إلى الجناح الملكي الخاص ،  
وانصرف من كانوا معه إلى ديارهم .

## ٨ - خطر . منتظر

كان اليوم التالي يوم أحد . وكانت عادة النعمان أن يذهب كل يوم أحد إلى كنيسة صغيرة ملاصقة لدير خارج الحيرة<sup>(١)</sup> نسعى « دير هند<sup>(٢)</sup> » ليتعبد فيها . غير أن النعمان لم يذهب إلى الكنيسة ذلك اليوم . وظن وزيره — أو رديفه عيلان — أن تخلفه عن الذهاب للصلاة في ذلك اليوم كان بسبب ما أصابه من تعب في الصيد أثناء اليوم السابق ، وما أصابه من ضيق وقلق في الليلتين السابقتين . وقبل أن يغادر الوزير بيته ليذهب إلى « القصر النعماني » ويسأل عن حال مليكه جاءه رسول يحمل كتاباً من النعمان يقول فيه : إذا غابت الشمس فأقدم إلى من

(١) كلمة الحيرة أصلها « حرثا » وهي كلمة سريانية معناها الحصن . وهذا يدل على وظيفتها الأولى ؛ فقد كانت حصناً للجنود يحمرون الحدود الفارسية ضد الغارات العربية .

(٢) كانت هند أم الملك عمرو ( ٥٥ - ٦٩ ) وكانت أميرة عسافية نصرانية وقد

الباب السرى الخاص ، وسأكون فى مقصورتى . وقد صدرت الأوامر للحرس أن يحضروك إلى .

وشغلت هذه الرسالة الوزير عيلان . ولكنه كان يعتقد أن النعمان ربما أحس بأمر يريد أن يستشير فيه منفرداً . فلما ذهب إليه حياه النعمان تحية كريمة ، وأجلسه إلى جواره على حشية من الحرير ملؤها ريش النعام . ثم قال له :

— إنك يا عيلان صديقى المخلص ، ووزير والدى وخادمه الأمين . ولتقتنى بك آثرت أن أستشيرك فى خاوة عن بقية الحاشية . فقد انتابتنى فى الأسابيع الأخيرة هموم شاغله ، وأصابنى قلق مؤرق ، وما زلت متشائماً من ذلك الحلم الذى قصصته عليكم .

إنك تعلم — يا عيلان — أن رعىتى وافيةً لى بقدر حرصى على خيرهم ؛ سواء منهم العباد الذين استوطنوا فى هذه البلاد قبل قدوم أجدادى التتوخيين ، والأحلاف الذين آويناهم عند ما قدموا إلينا من الجزيرة العربية وحالفونا واستقروا بديارنا . وليس بيننا خلاف فى الدين ، فعظمنا على ملة السيد المسيح . ولست أفرق بين أحد من الرعية بسبب أصله أو قبيلته أو عقيدته . ولكننى مع هذا كله أشعر أن العباد لا يدينون لى بالولاء ، وأنهم يكيدون لى كل الكيد ، ويدبرون المؤامرات ضدى عند الملك خسرو أبرويز . وقد زاد نشاطهم بالمدائن فى السنوات الأخيرة .

فقد وفدت إلى الأخبار أن الملك يُقرّبهم منه ، ويعدهم بالملك إن هم نجحوا في التخلص مني .  
فاجاب الوزير :

— إنك يا مولاي ، أبيت اللعن ، وارث هذا الملك أباً عن جد ،  
والملك في بيتكم ، والجنود خدمكم ورجالكم . وبدونكم لا يستطيع ملك  
فارسي أن يحمي تخومه ولا دياره . فكيف يُصدّق فيكم الوشائيات ، أو  
يفكر في إثارة أحد من أمراء العباد عليكم .

— لقد شعرت بتغيره عند ما ذهبت مع سيف بن ذى يزن نستنجده  
لتخليص اليمن من سلطان الأحباش . وقد كان جالساً في إيوانه بالمدائن  
فلم أجد منه ما ألفتُ من الحفاوة بي والإكرام . وردّ طلبه سيف . وقال  
له : « إن بلادك بعيدة عن بلادى ، فلم أكن لأورط جيشاً من فارس  
ليدافع عن أرض للعرب » . لقد قال له ذلك بحضرتى ونسى أننى وجيشى  
من العرب — عرب اليمن بلادنا الأصلية — وأننا ندافع عن أرضه وتخومه .  
وهو لم يكرّم مقدمى عليه ووساطتى عنده لسيف بن ذى يزن ، فلم يقبل  
أن يخرج جيشاً لمساعدة أهل اليمن ، على حين أن جيشى يساعده .

— ولكنه ، يا مولاي ، أرسل حملة في ثمانى سفن يرافقها سيف ،  
ويرأسها وهزّر القائد الفارسي الباسل الذى قتل فائد الأحباش .  
— لم يكن الذين خرجوا من فارس لتخليص اليمن من الأحباش

جنوداً نظاميين من الفرس . ولكنهم كانوا مجرمين امتلأت بهم السجون .  
وقد أرسلهم كسرى في تلك الحملة لا إكراماً لى ، ولكن لأن رجال دولته  
— ومن بينهم عدى بن زيد العبادى — هم الذين أشاروا عليه أن يجعل  
الحملة من هؤلاء المجرمين وقالوا له : « ابعث بهم إلى اليمن ليحاربوا ،  
فإن هلكوا كان ذلك الذى أردت بهم . وإن ظفروا أضفت إلى ملكك  
ملكاً جديداً » .

— ولكن مشورة عدى بن زيد العبادى لم تضر أحداً . ونجح رجال  
الحملة في تطهير اليمن من الأحباش .

— لقد شعرت منذ ذلك الوقت ، يوم أن زرت خسرو أبرويز في  
قصره ، أن عدى بن زيد — وهو أحد أفراد رعيتى — يدبر المكابد ضدى  
ويعمل على التخلص منى . إن له مارباً !

— ولكنك يا مولاي تخلصت منه في النهاية . وكانت عاقبته  
ما تعرف : موت في السجن .

— موت في السجن ! إنه مات ميتة طبيعية . لم أكن سبباً في قتله  
ولا تعذيبه . ومع ذلك أخشى أن يتهمنى الناس بقتله أو موته . فإذا  
يقولون عن هذا الحادث ؟

— إنهم لا يعرفون الحقيقة . والناس يتأثرون بالشائعات ، وبيالغون  
في الروايات .

— اصْدُقْنِي القول يا عيلان ؛ فأنت وزيرى المخلص ، وصديق  
الذى أعتد عليه . ماذا يقول الناس ؟

— يقولون ، أبيت اللعن ؛ إن عدى بن زيد العبادى قد تربى فى  
بيت أبىك المنذر الرابع فهو مدين بالفضل لأبيك وأسرتك .  
— ليس فى هذا القول شىء جديد . إننى أريد أن أعرف ما يقولون  
عن سبب سجنه ، وموته فى السجن .

— وهم يقولون ، أبيت اللعن ، إنك تلميذه لأنه كان مؤدبك  
الحاص ، وهو الذى عهد إليه والدك بأن يلقنك اللغة البهلوية ، الفارسية ،  
وآدابها ، ويثقفك فى سلوك الأمراء ، وآداب الملوك . وإنك ولا شك  
تحفظ له هذه المكرمة ، ولا تنسى له فضله .

فصاح النعمان قائلاً :

— وهم يقولون كذلك إننى غدرت به ، واستحضرت من بلاط كسرى  
لكى أسجنه وأقتله .

— هذه شائعات ، يا سيدى ، ولا ينبغي أن نهم بالشائعات .. نعم  
لأنهم يقولون : «لقد كان عدى بن زيد موفقاً فى عمله فى بلاط ملك  
فارس الذى كان يتولى به ديوان الترجمة . وكان الشاه مغتبطاً بوجوده عنده  
لأنه كان ينقل إلى الفارسية كل ما يأتى إلى كسرى من رسائل عربية ،  
ويترجم له شفاهة أحاديث الزائرين وخطبهم . وهو الذى ترجم خطب

وفود العرب على كسرى . لما كان له من مقدرة بارعة في الترجمة .  
 — إنك تحوم حول الموضوع الذى أعنيه . أنت تعرف أن زيدا بن  
 عدى هذا هو الذى يتولى الآن ديوان الترجمة من العربية إلى الفارسية ،  
 ومن الفارسية إلى العربية في بلاط كسرى خسرو أبرويز . وتعرف أنه يدس  
 لى الدسائس هناك . وقد وصلتني أخبار بأنه يدبر لى مع كسرى أمراً خطيراً .  
 والناس يقولون إن زيدا هذا يريد أن يثأر لأبيه الذى قتله أنا فى السجن .  
 هل قتلت أنا عدياً كما يقولون ؟ أهذا صحيح ؟

— الناس لا يعرفون حقيقة الأمر . إنك — يا مولاي — قد استحضرت  
 عدياً من بلاط كسرى ، ولكنك لم تذكر كسرى سبب استحضاره . وتراهم  
 إليك أنه ساخط ناغم لأنك وليت إخوتك وأقاربك فى مناصب الجيش  
 والوزارة . وقد أودعته السجن حتى تناقشه فى الأمر ، ويوضح لك ما كان  
 يشاع عنه من أنه وشى بك عند كسرى . ولكن الموت عاجله وهو فى  
 السجن .

— أتدرى ما يقول كسرى ؟ إنه يقول : إننى غدرت بعدى ، ولم  
 أحترم علاقته بالملك ، وهو أحد رجال بلاطه ، وإننى لم أكن وفيئاً  
 لعدى هذا الذى أدبني وثقفتنى ، فدبرت له من قتله . وأنا من هذا كره  
 برىء .

— لعل هذا هو ما يقوله زيد بن عدى الآن ، بعد أن صار مقرباً

من كسرى فهو بلا شك يستطيع أن يلقى له الأخبار ، وأن يزور الحقائق . وليس بغريب أن يدبر من المكائد ما يغير قلب كسرى عليك لا سيما أنه كتب إليك يطلب منك إطلاق سراح عدى فلم تطلق سراحه . — لقد وصل الكتاب وأنا في صائفة مع الجيش بالقرب من تخوم الغساسنة . وكانت هناك معركة أجلت عودتى إلى الحيرة . لذلك لم أنسلم الكتاب إلا بعد عودتى . وكان عدى حينذاك قد مات . — نعم كان قد مات ، أو دُبِّرَ له الموت .

فثار النعمان قائلاً :

— ماذا تقول يا عيلان؟ دُبِّرَ له الموت؟! دُبِّرَ له يا ذئبى أو بغير

إذنى؟

— لم يكن شيء من هذا يا ذئبى مولاي ، ولكن ما يقال هو أن إخوتك شعروا بأنه حاقدهم فآرادوا التخلص منه .

— آه . لقد فهمت الآن كل شيء ، ولم أكن أفهمه من قبل . لقد مات عدى قتيلًا ، وهو فى السجن . وأنا الذى سجنته . وإذا فللكسرى الحق فى أن يتهمنى بقتله ، لا سيما أنه قد أرسل إلى يطلب إطلاق سراحه ، فلم يتم هذا ، ولا عذر لى بالغياب خارج الحيرة . فمن ذا الذى يشرح لكسرى كل هذه الظروف . إن زيد بن عدى لا شك سيوغر صدره ضدى ، وسيفهمه أننى تحديت إرادة الشاه؛ وسيعمل الشاه وزيد معاً

على إقصائى من العرش ، والقضاء على أسرة المناذرة ، إن هذا كل ما أخشاه . الآن فهمت الأمر على حقيقته .

— لست أدرى لماذا يتصور مولاى كل هذه الأمور : إنك — أبيت اللعن — قد حلمت حلماً تشاءمت منه . وليس ثمة علاقة بين الحلم وكل هذه الهواجس .

— ما كنت أظنك ، يا عيلان ، قصير النظر بهذا الصورة . إن ما لدى من أفكار ليس هواجس ، وإنما هى أفكار مردها إلى الأخبار التى ترد إلى من عيونى وجواسيى فى بلاط كسرى . وليس الحلم الذى حلمته إلا نتيجة لهذه الأخبار . إن زيد بن عدى يدبر لنا المكاييد . والشاه ينتظر أية فرصة للتخلص منى . فلا بد أن نعدّ العدة من الآن .

— وأية عدة يا مولاى ؟

— العدة لمقاومة ملك فارس إن هو أغار علينا وأراد أن يستولى على بلادنا .

— إن كسرى لا يجرؤ على مثل هذا العمل ، لأنه لا يريد أن يغرر ببيشه ليحاربنا . وهو محتاج إلى الجيش لمواجهة غارات الروم . وهو يخشى إن حاربنا أن نتخلى عنه فى صد هجمات الفساسنة على حدوده وجندنا هناك مرابطون .

— الفساسنة !؟ أين الفساسنة الآن ؟ إنك تعلم أن جمعهم قد

تفرق ، وسلطانهم قد زال ، وإمبراطور الروم يحاربهم ويشردهم في كل مكان . فلم يعد شاه فارس يخشى من الغساسنة .  
— ماذا يرى إذا مولاي ؟

— العرب أهلنا . وهم منا ونحن منهم . ومهما تقربنا إلى الفرس أو الرومان ، وتقربوا إلينا فلنمنا ذلك لمصالح مؤقتة ، وهي مصالحهم هم ، ومصالح بلادهم . والرأى عندي أن نقوى علاقتنا بأهلنا من العرب ، ونحالفهم ، ونستعين بهم ، حتى إذا أراد ملك فارس أن يهاجمنا أو يستولى على بلادنا وجدنا من إخواننا أهل القبائل العربية من نستعين به .  
— هذا و الرأى السديد يا مولاي ، ولكن . . .

— لا تقل ولكن . إننى قررت هذا . وقد نويت أن أبعث إلى هانىء بن مسعود البكرى أستقدمه وجماعة من رجاله لبحث الموقف ، والتفاوض فيما عسى أن نعمل . وبذلك ندبر خطة مشتركة . وسوف يفد علينا في الأيام القليلة القادمة . وسوف يفد في قافلة تجارية حتى لا يذاع خبر قدومه لأمر آخر غير التجارة . وعند ما يفد سنجتمع به في مجلس خاص .

— إن سمح لي مولاي قلت إنه من الخير أن تستقبله أولاً في مجلس عام وتكرمه بحضور رجال الدولة ، باعتباره سيداً في قومه — بكر بن وائل — وضيئاً في بلادنا . وبذلك يعرف العامة والخاصة أن استقبالك له

كان لقدمه تاجراً وزائراً وسوف أدبر أنا الاجتماع الخاص .

— ليكن ذلك . وليكن الاجتماع في منزلك .

— أمرك مطاع يا سيدي .

ثم انصرف الوزير عيلان من مجلس النعمان ، ورأسه مملوء بالأفكار

المضطربة ، والقلق لما سمعه تلك الليلة من سيده المليك .

## ٩ - تدبير الحيلة

بدأ الخدم في قصر النعمان يعدون جناحاً خاصاً يقيم فيه زائر كريم .

ولم يكن أحد يعرف من الزائر . وقال بعضهم إنه رسول من قبل كسرى

خسرو أبرويز ، وقال آخرون إنه زيد بن عدى نفسه جاء ليعتذر

للملك النعمان عما شاع حوله من أخبار . وذهب غيرهم إلى أن الملك

النعمان قد أحب تلك الأميرة الفارسية شاهناز التي أسرت على تخوم

الروم ، وإنه ينوي أن يفرد لها جناحاً لتكون إحدى حظاياها .

وسرت في القصر شائعات وروايات متناقضة ، فالملك النعمان قد

اعتكف أياماً ولم يذهب إلى قاعة السمر كعادته ، وكان أمراء المناذرة

من أهله وإخوته يفتدون إلى مقصورتها الخاصة في القصر لزيارته والسؤال

عنه . وكان من بين الزائرين الأمراء صاخب وناظم وعساف وهم من قادة

الحرس ، والأمير فيصل ابن أخيه الأمير منصور ، والأميرة كوثر زوجة الأمير فيصل ، والرديف عيلان .

وفي إحدى الليالي كان جميع هؤلاء حضوراً . ودعا النعمان بالمغنيات والراقصات فعزفن ورقصن ، وكانت تدار على الحاضرين كؤوس الخمر المعتقة من كروم فارس والشام . وفي الربع الثالث من الليل كان الجميع في نشوة الشراب . وكان كل شيء خارج القصر هادئاً ، وكانت مدينة الحيرة في صمت عميق ، وكان رجال الحرس النعماني يرقبون من مسالحهم كل شيء . كل من يخرج من المدينة أو يدخل إليها . وبينما كان المجلس هكذا في نشوة وسرور إذ أمر النعمان بوقف الغناء والرقص ، وأن يخرج المغنيات والراقصات . ثم التفت إلى من حوله من الأمراء قائلاً :

— يا أبناء المناذرة ، ويا رجالى من أمراء الحيرة . أخشى أن يكون اليوم خمر وغداً أمر . إننى ما دعوتكم لهذا المجلس الليلة للتسلية والتلهى ، ولكن لأمر خطير يهمكم جميعاً ؛ لأن مستقبلكم ومستقبل أسرة المناذرة جميعاً مرتبط به .

لقد تراءى إلى خبير الدسائس التى يُعدها زيد بن عدى في بلاط كسرى خسرو أبرويز . ونحن مهما أظهرنا من ولاء لكسرى وقدمنا من عون له في الحرب والسلام لا نأمن أن يتغير علينا ، فيعمل على إزالة ملكتنا . إننى

لا أخشى على ملكي ، وإنما أخشى على ملك المناذرة . إن خسرو يريد أن يخلعني عن العرش ويولي غيري ممن يرضى عنه زيد بن عدى .

وشنا ارتفعت من بين الحاضرين أصوات استنكار ، وسخط ، وكان السامع يميز منها كلمات مثل : زيد الخائن ! ويل لهذا الوغد ! لا بد أن يلقي جزاءه ! ولكن النعمان بعد برهة قال بصوت الأمر الحازم !  
- صمتاً ، صمتاً ، يا رجالى . فليس الكلام بمفيد ما لم يصحبه العمل . لقد اجتمعنا اليوم لتدبير الخطة .

قال عيلان الرديف :

- كلنا في خدمة المليك .

وفجأة قالت الأميرة كوثر :

- أسمع حركة خارج باب الغرفة ، يجب أن نكون على حذر .

وفي الحال خرج الأمير فيصل من الغرفة ورجع يقول :

- لا شيء ، رجال الحرس يتناوبون الحراسة .

. واستأنف النعمان قوله :

- بماذا إذا تشيرون ؟

قال الأمير عساف :

- أرى أن ندعو الملك خسرو إلى الحيرة ، ونستقبله أطيب استقبال ،

ونكرمه ، حتى نكتسب قلبه وعظمه . وبذلك تبطل دسائس زيد بن عدى

وأغلب الظن أنك - أبيت اللعن - تفكر في هذا لأنى أرى الخدم يعدون جناحاً خاصاً في القصر لاستقبال زائر عظيم .

وأضاف الأمير صاحب :

- ولا بد أن نعرض عليه خيلنا ورجلنا ، وجيوشنا في عرض عسكري كبير ، ليرى مقدار قوتنا واستعدادنا ، فلا يفكر في تدبير أى أمر عسكري أو حربى ضد بلادنا . وسنعرض عليه فلول الأسرى من جنود الروم والغساسنة الذين جاء بهم جيشنا في غزوات هذا الصيف ، ليرى مقدار انتصاراتنا ، وما نؤديه من خدمات حربية لمساعدته . ومحاربة أعدائه ... وقاطع الأمير فيصل في نعمة ثانية مفكرة فقال :

- الرأى عندى غير هذا . نحن لا نضمن أن يقبل كسرى دعوة الملك . فكل تدبير إذاً نفكر فيه الآن سابق لقبول الدعوة . فإذا ما وجهت الدعوة له ورفضها ، فإن هذا الرفض سيكون لطمة كبرى لنا ، وانتصاراً لزيد بن عدى . ومن أجل هذا أقترح أن نقوى أنفسنا ، ونكثّر من حلفائنا ، ونجمع العرب ورجال القبائل المجاورة حولنا . فنصير بذلك قوة لها وزنها وقيمتها . وبذلك يشعر خسرو أننا قوة لا يستهان بها ؛ وأنه ليس من السهل عليه أن يتخلى عنا أو يدبر أى أمر ضدنا .

فقال النعمان :

— زه ، زه ! رأى صائب ، وتدبير سليم .  
وتساءل الأمير ناظم :

— وأى القبائل العربية يمكن أن يكون حليفنا ، وينضم إلينا ؟ إن بيننا وبين بنى يربوع ما تعلمون من خلاف وحرب . وقد كانوا يطمعون في أن يكون بيلاط النعمان وزير منهم ، فرفضنا طلبتهم ، ولم يكن لهم نصيب في الرفاة .

وأضاف الوزير عيلان :

— وأنا لا أثق بقبيلة طيء؛ فقد كانت دائماً موالية للعباد ، ومنهم زيد بن عدى ، وأخشى إن نحن كشفنا لهم عن أسرارنا أن يصبحوا جواسيس علينا لخصومنا . وأعلم أنهم على صلة بزيد بن عدى وبكسرى نفسه .  
وقال النعمان :

— ولا بد أن نستبعد قبيلة عامر بن صعصعة . وهى قبيلة قوية رجالها أشداء ، وذوو بأس في الحروب . ولكنى لا أظن أنهم قد نسوا ما كان بيننا وبينهم من حرب في « يوم السلان » . إنهم لم ينسوه ولن ينسوه ونحن لن ننساه أبداً . فقد كانت الهزيمة علينا . ولكن خسروا ولا بد قد نسيه ، ونسى أننا في تلك الحرب كنا ندافع عن قافلته ، وتجارته التى كانت تحملها القافلة لتباع في عكاظ ، وأن بنى عامر ما كانوا ليعتدوا علينا نحن العرب ، أهلهم ، ولكنهم كانوا يريدون أن يعتدوا على تجار

الفرس ، ويسلبوا أموالهم . فماذا كسبنا نحن ؟ لقد تنكر رجالنا في زى  
التجار ، وسافروا في قافلهم إلى بنى عامر ، وحاربوهم ، وقتلوا منهم ،  
 وقتلوا هم من جنودنا وأبنائنا ، وكانت الدائرة علينا . فلم نجد من خسرو  
 في ذلك الوقت عوناً حربيّاً ، ولا عتاداً نبعث به لرجالنا المحاربين . واكتفى  
 برسالة شكر بعث بها إلينا . والآن نسى هذا كله ولا يفكر إلا في التخلص  
 من عرش المناذرة ، وجيش المناذرة !

قالت الأميرة كوثر :

— ولا أظن أن قبيلة ذبيان ترغب في التحالف معنا ، بعد طردك  
 شاعرها وحرمانك إياه من الدخول إلى مجلسك يا خالي ؛ أبيت اللعن .  
 إن بنى ذبيان يعتقدون أن ما لحق شاعرهم من هوان كان موجهاً إليهم ،  
 لا بل موجهاً إلى كل فرد من أفراد قبيلتهم . وهم الآن أكثر ما يكونون  
 ميلاً إلى الغساسنة . ومهما كان الغساسنة عرباً فإن ما بيننا وبينهم من  
 عداة قديم لم يزل كامناً في النفوس تثيره الأحداث . ألم يحرقوا مدينتنا  
 الحيرة ؟ ألم نقتل نحن رجالهم ؟

وارتفع صوت النعمان في شيء من الأسف والندم :

— من أجل الفرس عادينا أهلنا العرب ، ومن أجل الفرس حاربنا  
 إخواننا العرب . واليوم يريد أن يتخلى عنا الفرس فلا نجد من أهلنا  
 وإخواننا حلفاء .

قال الرديف عيلان :

— إنك ، يا مولاي ، بعيد النظر ، حازم الرأي . وصداقتنا لقبيلة بكر بن وائل قديمة عريقة . وبيننا وبينها صلوات التجارة والحوار . وكثيراً ما وفدوا إلى ديارنا وأسواقنا ، فلقوا منا الإكرام والضيافة . وفي السنوات الجذبة ترعى مواشيهم بأرضنا ، ويتزلون مياهنا . وليس بيننا وبينهم حرب أو ثارات .

وكان النعمان ينصت ، ويتبع كل كلمة يقوها الوزير عيلان بكثير من الاهتمام ، كأنه كان يعبر عن رأيه . ولم يتركه يستمر في الحديث ، بل هز رأسه وقال :

زه ، زه . رأى صائب ، وتدير سليم . إن هاني بن مسعود من خيرة رجال بني بكر . وقد عرفته شجاعاً جريئاً ، وفارساً مقداماً . عرفت فيه ذلك منذ أن قدم على رأس وفد بني بكر بن وائل ليهنئني بتولي عرش الحيرة . وعرفت فيه الفروسية يوم أن خرجنا معاً للصيد وغامرنا في أحد الأحراج ، وتعرضنا لهجوم أسد كاسر . فاستطاع بجرائته وقوته أن يصرع الأسد ويقتله . والرأي عندى أن نبعث إليه رسولا منكم يعرض عليه التحالف معنا ، فنكون لقبيلته أصدقاء ، ننصرها في الحرب ، ونزويدها في السلم ، ونرحب بتجارتهم ، وماشيهم ترعى في مراعيها ، وترد مياهنا .  
فمن يكون رسولاً إليه ؟

فوقف الأمير صاحب وقال :

— لبيك ، أبيت اللعن .

ووقف الأمير فيصل وقال :

— لبيك ، أبيت اللعن .

ووقف كل من حضر من الأمراء ، واحداً بعد واحد ، وقال :

— لبيك ، أبيت اللعن .

قال النعمان :

— ليذهب الأمير صاحب والأمير عساف ، وليأخذا معهما من

يريدان من الجنود والخدم ، وليحملوا معهم الهدايا الثمينة . وليعرضوا

الفكرة على هانيء بن مسعود في حذر وكرامة ، حتى لا يشعر بأننا في

حاجة إليه . ثم يدعونه لزيارتنا .

وهنا قال الأمير فيصل :

— إن أذن لي عمي — أطل الله عمره — اقترحت أن تخرج هذه

البعثة متجهة نحو تخوم الروم ، حتى لا يعرف أحد وجهتها . فإذا

ما ابتعدت عن المعمور من البلاد اتجهت نحو مواطن بكر بن وائل .

وبذلك يظل الأمر سرّاً مكتوماً . وإن قبل هانيء بن مسعود مخالفتنا ،

ورضى أن يزورنا بقى معه أحد الأميرين ، وعاد الآخر ومعه حاشيته

ليحمل لنا الخبر ، حتى نهيأ له .

قال النعمان :

— زه ، زه . رأى صائب ، وتديير سليم . وسيكون الجناح الخاص  
الذي يعده الخدم الآن في القصر دار المضيافة لهاني بن مسعود إن هو قبل  
الدعوة .

ولاحت أضواء الفجر ، وصاحت ديكة الصباح . فأعلن النعمان  
انتهاء الاجتماع ، ووقف قائلاً :

— والآن أيها الأمراء من بني منذر ، عموا صباحاً . وليصحب  
التوفيق والسعد رسولاً إلى ابن مسعود .

فتقدم الجميع يقبل كل منهم يد النعمان . وتقدمت الأميرة كوزر  
فقبلته في خده . وانصرفوا .

## ١٠ — التقرب إلى بني بكر

مضى يومان كان فيهما الأمير صاحب يعد العدة لهذه البعثة السرية .  
فعهد إلى الأمير عساف أن يشتري نفائس الهدايا من السيوف الهندية ،  
والدروع الرومية ، والآلى البحرين ، والأبسطة العجمية ، والخيول الفارسة ،  
والسروج المزركشة بالقصب والقטיפه والحريير الدمشقي . وطلب إليه أن  
يعد أحمالاً من الحبوب والتوابل والخمور والعطور ، وعدداً من الجوارى  
الروميات .

وفي الوقت نفسه اختار الأمير صاحب من رجاله الأشداء من يعتمد عليهم في مواجهة المخاطر ، ومن يثق بهم في حفظ الأسرار .  
 واتفق الأمير صاحب مع رئيس الحرس في المسلحة التي بجانب « باب الروم » أن يكون خروج البعثة من هذا الباب في منتصف الليل ،  
 وألا يطلق الحراس النفير كعادتهم إيداناً بخروج البعثة من ذلك الباب حتى لا يتنبه لخروجهم أحد .

وفي الربع الثاني من الليل بينما كان النعمان في قاعة السمر يستقبل زائرين من وفود العرب ورجال مملكته تقدم الحاجب عصام ، ووقف بين يديه قائلاً :

— الأمير صاحب بالباب يا مولاي .

فأجاب النعمان :

— ليدخل الأمير صاحب .

وانفرج باب القاعة ، ودخل الأمير صاحب في لباس الجندي ،  
 وتقدم إلى حيث كان يجلس النعمان ، وانحنى أمامه ، ثم رفع رأسه قائلاً :

— نعمت مساء ، أبيت اللعن .

— نعمت مساء أيها الأمير . إلى أين وجهتك ؟

— إن أذن لي مولاي خرجت الليلة في بعثة استطلاعية إلى حدود

الروم . فالغساسة لا يزالون في اشتباك معهم ، وجنودنا تواجه الآن مهمتين ؛ مهمة إرجاع الفارين من الغساسة إلى ديارهم أو أسرهم ؛ ومهمة محاربة الكتائب الرومية التي تتعدى التخوم فتدخل ديارنا .

— وهل أعددت لرحلتك هذه كل ما تحتاج إليه من ذخيرة ورجال ؟

— نعم ، أبيت اللعن .

— لا تنس أن يصلني منك البريد بمجرد وصولك إلى التخوم ، وأن توافيني بأخبارك .

— السمع والطاعة يا مولاي .

— سر موفقاً ، ولتحرسك السماء ، وليبارك الرب خطواتك في الحل والترحال .

ودنا انحنى الأمير صاحب فقبل يد الملك ، ثم تراجع خطوات واستدار حتى واجه باب القاعة ، ورفع يده بحذاء كتفه قائلاً :

— عموا مساء معشر الحاضرين .

فارتفع صوت الحاضرين :

— عم مساء ، أيها الأمير ، صحتك السلامة .

• • •

هناك عند باب الروم كان الأمير عساف في الانتظار ومعه رجاله

من الفرسان والجنود الأشداء ، وقافلة من الإبل تحمل الهدايا ، وجواد عربي قاره ، ملجم وسرج في انتظار سيده الأمير صاحب . وحانت ساعة منتصف الليل ، وخرج الأمير صاحب إلى باب الروم ، وامتنطى جواده . ثم سار الراكب نحو تخوم الروم .

هكذا ساروا ثلاثة أيام بلياليها حتى وصلوا إلى منتصف الطريق بين الحيرة ودمشق . ثم حطوا رحالهم ليسترجموا في مكان بالقرب من عين ماء ثرة ، وأشجار وارقة الظلال . وكانوا من قبل يعرفون هذا المكان لأنه محط الجنود الذاهبة إلى التخوم والراجعة منها . وفي هذه البقعة قام بنا مرتفع كأنه حصن ، به جنود للحراسة ، وغرفات النوم ، ومخارن للمؤونة ، وإسطبلات للخيل والإبل . ورئيسه قائد من قواد الجيش النعماني . ومن هذا المكان وإليه كان البريد الصادر من الحيرة يرسل إلى قواد الجنود على التخوم ، وكان البريد الوارد من التخوم يُرسل إلى الحيرة . وفي هذا الحصن برج لتربية حمام الزاجل ، وهو حمام البريد الذي يحمل الرسائل المريعة إلى قياده الجيش في الحيرة ، وإلى الحصون التي على تخوم الروم .

وتقدم الأمير صاحب فدخل الحصن ، وحياه الحارس الواقف بالباب تحية تكريم لأمر قائد . وسرعان ما جاء قائد الحصن فرحب بالأمر صاحب ، واجتمع به على أفراد . وفي هذا الاجتماع أفضى إليه الأمير

صاحب بنخطته ووجهته . وطلب إليه أن يرسل يبريد الحمام الزاجل رسالة إلى المليك يخبره بوصول البعثة ، وأنها استراحت يوماً بالحصن ثم استأنفت سيرها إلى غايتها .

وقد استراح الأمير صاحب ورجاله في ذلك الحصن وخارجه يوماً ، جددوا فيه ملابسهم ، وأراحوا دوابهم ، وعلفوها ونظفوها وسقوها ، وتزودوا بما يلزمهم من الماء الذي يحتاجون إليه حتى يصلوا إلى أقرب عين في الطريق .

وفي فجر اليوم الثالث من وصولهم غادروا الحصن متجهين نحو الجنوب الشرقى في طريق للقوافل مطروق مألوف ، ولكنهم قبل أن يغادروا الحصن ، خلعوا ملابس الجندية ، ولبسوا ثياب البدو والتجار . وهم قد فعلوا ذلك لأنهم كانوا واثقين من أنهم سيمرون في طريقهم ببعض القبائل غير الموالية مثل قبيلة طي وذيبيان ، وبقوافل من التجار . فلم يكن من الحكمة أن يعرف أحد حقيقتهم ولا غرضهم .

واستمرت رحلتهم تسعة أيام ارتاحوا فيها يوماً واحداً هو اليوم الخامس . ولما اقتربوا من أطراف قبيلة بكر بن وائل أناخوا خارجها . وكان ذلك في مساء اليوم التاسع من مغادرة الحصن . ولم يشأ الأمير صاحب أن يدخل إلى القبيلة بخيله وإبله وأحماله في الليل ، بل بعث رسولا من رجاله - هو الأمير عاف - ليبحث عن ديار هاني بن

مسعود ، وبخبره بأمر البعثة . ونجح الأمير عساف في مهمته ، والتقى بهاني الذي أسرع فخرج ليرحب بالأمير صاحب ورجاله ، وكانت ليلة تعارف وضيافة استمرت حتى الفجر .

في ساعات الفجر الأولى تحركت القافلة برجالها وخيلها وإبلها إلى ديار هاني بن مسعود . وكانت قد نصبت للضيوف الأمراء ورجالهم خيام خاصة من الجلد والوبر . فتوجهوا نحوها .

وشاع الخير بين القبيلة أن تجاراً من الحيرة قد وفدوا ، وأنهم أصدقاء هاني بن مسعود . فتوافد على دياره أعيان القبيلة وسادتها يرحبون بالضيوف ويدعونهم إلى ديارهم للتكريم والطعام . وكانت مآدب عربية فخمة نحررت فيها الإبل ، وخذت فيها اللحوم ، ومدت الأسمطة بالعصيدة واللبن واللحوم المقددة والمحنذة ، وإلى جنبها أباريق الحمر والشراب .

• • •

وبعد ثلاثة أيام من الضيافة قبل هاني بن مسعود أن يذهب لزيارة النعمان ، وأن يبحث معه الأمر أولاً قبل أن يعلنه في قبيلته . ثم جمع رؤساء القبيلة وأفضى إليهم بمهمة البعثة ، واستشارهم في أمر سفره فقبلوا ، واقترحوا أن يصاحبه من رجال القبيلة بعض شبانها وكهولها .

وهنا أسرع الأمير صاحب فأرسل الأمير « عساف » ومعه خمسة من الرجال الأشداء إلى الحيرة ليحملوا إلى النعمان خبر قبول هاني بن مسعود

للدعوة ، وأنه مقبل عليه خلال شهر . فارتحل الأمير عساف إلى الحيرة برسالته . وكان في زى التجار . واتخذ طريقه إلى الحيرة مباشرة .

كان الرأي أن يسافر هانىء بن مسعود إلى الحيرة في جمع من رجاله متكرين في زى تجار حتى لا يلتفتوا نظراً القبائل إلى هذه الزيارة ولذلك بدأ هانىء يعد القافلة لهذا الغرض . فاستدعى خمسين من شباب قبيلته ، وعهد إليهم أن يعدوا قافلة من مائتي بعير ، وأن يزودوها بما عسى أن يحتاجوا إليه في الطريق من الزاد والماء ، وأن يحملوا بعض هذه الإبل بما عندهم من جلود وأصواف وأوبار ، وبما اشتره من توابل اليمن وعطورها وخورها . وأعلن هانىء أنه متجه إلى سوق الحيرة قبل أن يبدأ الصيف . وكان ذلك في فصل الربيع .

### ١١ - هانىء بن مسعود يسافر للحيرة

تهيأت القافلة كما أراد هانىء بن مسعود ، وجعل في المقدمة بضعة جمال من الهجين الأبيض الكريم الأصل ، وفوق هذه الجمال عملت هودج من الجلود والتطيفة والحريير ليركبها الأمير صاحب وصحبه وتزيئاً الأمير صاحب ورجاله وهانىء بن مسعود وصحبه في زى التجار ، وبدأت القافلة سيرها نحو الشمال الغربي محاذية الخليج الفارسي الذي كان على

اليمن ، ومحاذية لمتقى دجلة والفرات ، في طريق تجارى قديم ، وكان لا بد أن تمر في طريقها هذا بأطراف قبيلة شيان وثعل وكليب . ونجحت القافلة في أن تحتفظ بسرّ مهمتها مكتوماً . فلم يعرف أحد أن لها غاية من السفر إلى الخيرة غير التجارة . وكان هانئ بن مسعود بارعاً في تفكيره وتدبيره . فإنه بدلا من أن ينزل بقافلته في الطريق على القبائل التي مر بها ليتزود بالماء والطعام ، كان ينزل على آبار المياه القريبة من الطريق والبعيدة عن منازل القبائل . وكان قد حمل معه من الطعام ولا سيما التمر ما يكفيه وصحبه مدة السفر .

أشرفت القافلة على مدخل الخيرة مساء أحد الأيام في أواخر فصل الربيع من سنة ٦٠٢ ميلادية . وهناك وجد الأمير صاحب الأمير « عساف » وجماعة من رجاله في الانتظار ، يحملون من النعمان رسالة تحية وترحيب . وأخبر الأمير عساف الأمير صاحب بأنه من الخير أن تدخل القافلة في منتصف الليل ، وأن دخولها سيعلن عنه من مسلحة « باب العرب » ، وأن نضير المسلحة سيطلق لفترة قصيرة ، حتى لا يتنبه السكان لأهمية القافلة القادمة .

• • •

كان الملك النعمان في قاعة السمر تلك الليلة ، يستمع إلى أحاديث الراوية ، وفكاهات المضحك ، وأغاني المغنيات . وكانت الليلة إحدى

ليالى اللهو والسمر التى اعتاد النعمان أن يجيئها ، ويدعو إليها خاصته ، ويستقبل فيها المادحين من الشعراء . وكان الراوية قبل منتصف الليل قد بدأ يحدث الحاضرين ، ويقول :

— نعم يا مولاي ، أبيت اللعن ، كان لحدودك من أقبال العمين وملوكها تجارة وحضارة . أما التجارة فكانت تأتي بها السفن من الهند والصين ، فترسو على الشواطئ ومنها تحمل على ظهور الإبل في قوافل ضخمة تسير إلى الشام ومصر وبلاد الروم ، محملة بالذهب والعاج والتوابل والقطن . والملابس والآلئ والبخور والعطور والحوارى . وكانت تلك القوافل تعود محملة ببضائع من الشمال ، منها الخنطة والزيت والحمور والأصباغ والمنسوجات وسبائك الفضة . وكانت بلاد أجدادك — يا مولاي — غنية بالتجارة والزراعة . فلم يكن أهلها يزرعون الوديان والسهول المنبسطة فحسب ، بل كانوا كذلك يزرعون سفوح الجبال ، بعد أن تمكنوا من خزن المياه — مياه الأمطار والسيول — في خزانات أرضية واسعة ، تخرج منها قنوات حفرها لتوصل المياه إلى البقاع البعيدة ، وإلى سفوح الجبال . وأما الحضارة فمنها المعمار ، وكان لهم فيه قدم راسخة . فقد بنوا الحصون والمعابد ، والمدن ، والقصور ، وسدود المياه ، وما قصر غمدان إلا تحفة من المعمار يفوق في جماله وسعته كل ما عرف من القصور .

وابتسم النعمان وقال :

— وهل كان يفوق الخورنق؟

فقال الراوية :

— لقد بالغ الرواة في وصفه ، يا مولاي ، وقالوا عنه : إنه كان عشرين طبقة بعضها فوق بعض ، وارتفاع كل طبقة عشرة أذرع . وإن بانيه لما بلغ غرفه العليا أطبق سقفها برخامة واحدة شفافة ، حتى لقد كان الناظر إلى السماء من أى غرفة علوية يرى النجوم والقمر في الليالي المقمرة .

— مجدّ ضاع ، وعز زال ، وكلّنا إلى زوال .

ووقف أحد الحاضرين ، وانحنى راکعاً ثم انتصب وقال :

— إن مجد آبائك وأجدادك ، أبيت اللعن ، لم يزل ولن يزول فهو في ملكك وبلادك قائم باق . ولك العز والبقاء .

ولم يلتفت النعمان إلى المتحدث أو يهتم بما قال ، بل اتجه إلى

الراوية وقال :

— زدني من حديث جدودي ، ومجدهم الضائع في الذكرى عظة .

قال الراوية :

— وكان سدّ مأرب ، يا مولاي ، آية في الهندسة والبناء ، فقد

كانت الأمطار — كماداتها — تهطل في الصيف عندهم ، وكانت من الكثرة بحيث تصير سيولا جارفة تكتسح أمامها كل شيء . فإذا ما انتهى

فصل المطر جفت الأرض ، وجف الزرع ، وظمى الناس وطمشت اللواب . فبنوا من الحجارة حائطاً ضخماً عند مدخل أكبر الأودية ، حيث تسقط الأمطار بكثرة وتندفع السيول من الجبال . واستطاعوا بذلك أن يحجزوا المياه خلف هذا الحائط الذى كان طوله ثمانمائة ذراع ، وسمكه خمس عشرة ذراعاً ، وارتفاعه بضع عشرة ذراعاً . وكانت به منافذ ينصرف منها الماء إلى المجارى والقنوات ، فتسقى المزارع والبساتين . وكانت هذه المنافذ ثقيل بيويات من الخشب . فعم بذلك الحصب والرشاء حتى صارت فواكه اليمين مضرب الأمثال .

قال النعمان :

— لقد طوى التاريخ كل هذا ، فلم يبق منه إلا أثر بعد عين .

مجد ضاع ، وعز زال ، وكلنا إلى زوال .

وتنحني الراوية ، وهم بالكلام . ولكن قبل أن ينطلق بكلمة تقدم عصام الحاجب من النعمان فرقع بين يديه ، وهمهم بكلمات لم يسمعها إلا النعمان . وهنا ضرب النعمان متكأ الكرسي الذى كان يجلس عليه بيده اليمنى ، ودفع برأسه إلى الخلف ، وقال بصوت ناثر :

— ويلٌ للخرة . لقد فعلتها العاهر !

وكان النعمان إذا ضرب متكأ كرسيه بيده اليمنى فى غضب فإن هذا دليل على أن حادثاً لا يرضاه قد وقع ، وكان هذا وحده إيداناً بانتهاء

المجلس . فهم الحاضرون بالانصراف ؛ كل يتقدم بين يدي النعمان ،  
وينحني انحناء الركوع قائلاً : عم مساء ، أبيت اللعن ، ثم يرجع  
خطوات إلى الخلف ، ويخرج .

هكذا انصرف الحاضرون ، ولم يبق منهم إلا الوزير عيلان ، الذي  
قام من كرسیه ، وتقدم نحو النعمان ، وأشار إلى عصام الحاجب فحضر  
ووقف بجواره ، فسأله :

— أى خبر ذكرت لمولای ؟

قال عصام :

— إن الحراس قد اكتشفوا أن الأسيرة الرومية ، التى تزعم أنها أميرة  
فارسية واسمها شاهناز ، قد اختفت من القصر ، واختفى معها القائد  
حسام الذى جاء بها من حدود الروم . ويقول بعض الحراس إنهم رأوها  
يهربان فى ظلام الليلة الماضية ، متجهين نحو نهر دجلة بعد أن عبرا  
الفرات . وأغلب الظن أنهما ذهبا إلى المدائن . فقد كانت الشبهة تحوم  
حول تلك الأسيرة وحول القائد نفسه .

قال النعمان فى صوت ناثر :

— لقد كانت تلك العاهر نذير شؤم منذ أن قدمت إلى بلادنا . ولم  
أطمئن إليها قط . وكنت أشعر دائماً أن فى أسرها خفيًا سرًا ، أما ذلك الخائن  
فلعله واحد من جواسيس زيد بن عدى . وقد هرب لينضم إليه ، ويحمل

إليه أخبارنا . يا عصام . أخبر رئيس الحرس ليعيث بفرقة الفرسان وراءهما  
فلعلمهم يقبضون عليهما .

وخرج عصام . وسادت فترة صمت عاد بعدها عصام ،  
وتقدم من النعمان يقول :

— الأمير صاحب الباب يا مولاي .

قال النعمان :

— دعه يدخل .

وانفتح الباب فدخل الأمير صاحب في ثياب التجار ، وركع أمام  
النعمان وقبل يده ، وقال :

— لقد وصل هاني بن مسعود على رأس القافلة . وقد أنزلناه في الجناح  
الذي خصص له بالقصر . وأنزلنا رجاله في منازل التجار القريبة من سوق  
الحيرة .

فبش له النعمان ، وسأله :

— أكنت موفقاً في رسالتك يا صاحب ؟ وهل وجدت بني بكر  
راغبين في محالفتنا .

— إنهم أشد ما يكونون لنا وفاء وعهداً . وقد بعثوا بزعيهم هاني  
ليحمل لكم ولاءهم وعهدهم في الحرب والسلام .

— إننا أشد ما نكون الآن حاجة إلى محالفتهم ، ومؤازرتهم . لقد قويت

شبهاني ، وصرت أكثر اعتقاداً بأن زيد بن عدى يدبر لنا المكاييد ، وأن كسرى خسرو متأمر معه على ملكتنا وأرضنا . فلا بد أن نتخذ كل حيلة ممكنة ، وأن نبطل تدبيرهم .

والتفت النعمان إلى وزيره عيلان قائلاً :

— غداً مساء تقام لضيفنا البكرى وليمة التكريم ، ويدعى لها أمراء المناذرة ، وقادة الجيش ، وأعيان المدينة .

ثم التفت إلى الأمير صاحب وقال :

وأنت يا صاحب لتحضره غداً عند العشاء حتى أرى مقصورتى الخاصة في القصر ، حتى أتحدث إليه فيما يهمني .

ثم اتجه إلى الوزير عيلان قائلاً :

— والآن عم مساء يا عيلان .

وإلى الأمير صاحب ، وقال :

— وأنت يا صاحب ، ارجع إلى أهلِكَ ، فكن معهم الليلة ، لقد طال غيبتك عنهم ، عم مساء .

فرد كل من الوزير عيلان ، والأمير صاحب تحية المساء ،

وانصرفا .

## ١٢ - أسلحة النعمان وأمواله

كانت الشمس قد ارتفعت كثيراً فوق الأفق ، ساعة الضحى ، عندما جلس النعمان في مقصورته الخاصة بالقصر ، وكان معه الوزير عيلان ، والأمير فيصل والأميرة كوثر . وكان الجميع في انتظار الضيف العربي الكريم هاني بن مسعود . وبعد قليل سمعت حركة خارج المقصورة وانفتح بابها ، ودخل منه عربي طويل القوام ، أبيض الوجه مشرقه ، رقيق الأنف ، حاد النظرات ، خفيف اللحية ، قد اثتر بثمر أحمر من الحرير ، وتدل من تحت إبطه اليسرى سيف ذو مقبض من الذهب وغمد من الفضة . وعلى رأسه كوفية صفراء وعقال أسود في وسطه لؤلؤة . وكان هذا العربي هاني بن مسعود . ودخل معه الأمير صاحب .

قام النعمان وقام معه من في حضرته ، وعانق النعمان ضيفه الكريم عناقاً طويلاً حاراً . وقدم له من كانوا معه . فتبادل معهم التحية وعبارات الود .

وبعد أن أدبرت كئوس الشراب ، وتحدث النعمان إلى ضيفه عن ذكريات الماضي ، وكان بينهما من لقاء سابق ، قال لهاني :  
- يا أخا العرب! إن ما بيننا من أواصر الدم ، واللغة ، والحياة ،

والوطن يجعلنا نتحالف في السراء والضراء . ولقد كانت بلادى منذ أن قدم  
أجدادنا من اليمن مفتوحة الأبواب لقبيلة بكر بن وائل ؛ قوافلكم تفد  
بالتجارة إلى أسواقنا ، ودوابكم ترد مياهنا ومراعينا . وكنا وإياكم دائماً  
في سلم وولاء .

وقد بلغني أن زيد بن عدى يدس لى ولأسرة المناذرة عند كسرى خسرو  
أبرويز . وهو يزعم أن العبَّاد هم أصحاب هذه البلاد، وسكانها الأوائل قبل  
أن يقد أجدادنا من اليمن، وأخشى أن ينجح في دسه ، فتقوم بيننا وبين  
فارس حروب .

قال هاني بن مسعود :

— أعز الله الملك . إن أخوتنا لن تنفصم عراها . وقد كانت صلاتنا  
في الرحم ، واللغة ، والوطن ، والحياة المشتركة قوية مكيئة . وقد فوضتني  
قبيلتي أن أتكلم نائباً عنها ، وعهدت إلي أن أعقد معكم حلف مناصرة  
في الحرب والسلم . غير أن بني بكر — أبيت اللعن — ليس لديهم سلاح  
يحاربون به إن نشبت الحرب وهم يجودون بأرواحهم عند الحاجة ، ولكن  
لا بد لهم من سلاح يدافعون به .

ونظر النعمان إلى الرديف عيلان سائلاً :

— ماذا ترى يا عيلان ؟

— نبعث لهم بأسلحة من عندنا ، ونجعلها أمانة عندهم . فإن

اضطروا إلى استعمالها في مناصرتنا كان لهم ذلك . وإن سويننا علاقتنا مع فارس بالسلم كان من الميسور استرداد الأمانة .

قال الأمير صاحب :

— إن لدينا في المسالحي قدرأ من السلاح والذخيرة أكثر مما نحتاج إليه الآن . ولا أظن أننا قادمون على حرب مع الروم في المستقبل القريب . فقد هزم الفرسُ الرومَ منذ شهرين في معركة حاسمة . والروم مشغولون الآن كذلك بمطاردة الفساسنة . فنحن إذا نستطيع الاستغناء عن هذا القدر من السلاح والذخيرة .

وسادت فترة صمت قصيرة قال بعدها النعمان :

— لقد دعاني كسرى إلى زيارة المدائن في الشهر القادم ، للاشتراك في الاحتفال العسكري الكبير الذي سيقام تخليداً لذكرى ما أحرزه الجيش الفارسي من نصر ضد الروم . وستكون معي أنت يا صاحب . وستنهب هذه الفرصة لنطلب من كسرى أن يزودنا بقدر جديد من السلاح لتحصين تخوم الروم ، وبذلك نعوض ما نبعث به وديعة عند بكر بن وائل .

وهنا اقترح الرديف عيلان قائلاً :

— إن أذن مولاي جعلنا ما سنبعث به من دروع وسيوف وقسي إلى قبيلة بكر ، في صناديق . فإذا ما حان موعد رجوع القافلة حملت

هذه الصناديق معها ، دون أن يعلم أحد بما فيها . ويكفى أن يقال إنها هداياك — آبيت اللعن — للضيف العربي الكريم .

فقال النعمان :

— رأى صائب وقول سديد .

كان هانىء بن مسعود ينصت لكل هذا ولا يقول شيئاً . فلما انتهى

حديث المناذرة قال :

— وإن شتم بعثت بنخبة من رجالنا الأشداء ليدربوا مع جنودكم

على أساليب الكر والفر ، حتى يكونوا قادة للمحاربين من شباننا عند

الحاجة :

والتفت النعمان إلى الأمير صاحب ، وقال :

— لا بأس يا صاحب أن تبحث هذا الأمر مع ضيفنا الكريم . ثم

وضع يده اليمنى على متكأ الكرسي الذى يجلس عليه ، فكانت هذه إشارة

إلى انتهاء المجلس . وهم الجميع بالقيام ، فقام النعمان ، وسار مع ضيفه

مودعاً إلى باب المقصورة ، وهو يقول :

— إلى اللقاء هذا المساء ، إلى اللقاء هذا المساء .

• • •

وفى قاعة السمر اجتمع نحو مائتين من أمراء المناذرة ، وقادة

الجيش ، والوزراء ، والتجار ، والشعراء ، والرواة ، ليرحبوا برجال القافلة

التجارية التي وفدت من ديار بكر بن وائل . وكانت أمية طويلة امتدت إلى الربع الأخير من الليل . وكان المجلس شعلة من الأضواء المنبثة من الشموع ، والمنعكسة من اللاّلي التي يحملها الأمراء في تيجانهم ، ومن أعمدة السيوف الذهبية والفضية . وكانت ليلة صاحبة ناصوات الكتوم ، وحديث الرواة ، وضحكات المتحدثين ، وأغاني المغنيات ، وعزف الموسيقى .

وأشاع الوزير عيلان في المجلس أن الملك النعمان قد أهدى إلى ضيوفه من بني بكر هدايا من الثياب ، والزيت ، والعمود ، والحمور . وأنها تعد لتنتقل إلى ديار بكر . وكانت ليلة ملكية انتهت بطلوع الفجر

بنى رجال القافلة من بني بكر بن وائل موضع الحفارة والضيافة في الحيرة حتى رجعوا إلى بلادهم . وكانت إبلهم عند ما غادرت الحيرة قد حملت معها صناديق الهدايا . أما ما في هذه الصناديق فلا يعرف حقيقته إلا النعمان ورجاله .

### ١٣ - النعمان يسافر إلى المدائن

اطمأن النعمان بهذا التحالف إلى أن ظهره عمى . فقد كان لديه جيش ماهر في الحروب ، يقاوم عند الحاجة ، وصار لديه الآن حلفاء مزودون بالسلاح من السيوف والدروع والقمى والحراب والنبال . ولم يبق إلا أن يذهب إلى المدائن لزيارة كسرى ، وهناك سيحاول إزالة ما خلقه زيد بن عدى من دسائس ، ويعيد جو الصفاء بينه وبين الملك .

بدأت كتيبة من الجيش النعماني تهباً للسفر مع الملك إلى المدائن . وعهد الملك إلى الأمير صاحب بأن يبق في الحيرة أثناء غيبته . وأمر أن يصحبه في هذه الرحلة الأمير حازم - رئيس الحرم - ليكون رئيساً للفرقة العسكرية . وأعد النعمان من الهدايا لكسرى تحفاً من أسلاب الروم ، دروعاً وسيوفاً من الذهب والفضة ، وعقوداً من لآلئ البحرين ، وجزائر من الروم والحبيشة .

ولما تم كل شيء سافر إلى المدائن . غير أنه في يوم السفر مرض الأمير حازم فاضطر النعمان إلى أن يغير خطته ، فعهد للأمير صاحب بمصاحبه رئيساً لكتيبة الشرف التي ستلازمه أثناء غيبته . ووكّل أمر رياضة الحرس النعماني في الحيرة للأمير عساف .

كان عرضاً عسكرياً خالداً ذلك الذي قام به الجيش الفارس في الساحة الكبرى بمدينة المدائن عاصمة فارس ، واشتركت فيه كتائب من جميع مقاطعات فارس ، كما اشتركت فيه كتيبة الخيرة برياسة الأمير حازم . واستقبل كسرى النعمان استقبالا كريماً ، وأعد له منزلاً خاصاً ، ووكل أمر خدمته إلى واحد من قواد الجيش المقربين منه والذين هم موضع ثقته . وانتهت الحفلات العسكرية والأعياد . ورغب النعمان في أن يخلو بكسرى ليتحدث إليه منفرداً ، وليعمل على إزالة ما دُبرَ ضده من مكاييد . ولكن كسرى لم يمكنه من المقابلة ، وكان يعتذر كل مرة بمشاغل هامة . وطالت إقامة النعمان في المدائن . وبعث إليه كسرى يقول : إنه يرغب في أن يبتى النعمان هذا الصيف قريباً منه . ويعود إلى الخيرة بعد الصيف إن أراد .

وأحس النعمان أنه لم يعد حرّاً في حياته ، فجميع من بقصره من الخدم فرس ، وحراسه من الفرس . ولم يكن في استطاعته أن يغادر القصر الذي نزل به إلا بعد استئذان القائد القائم على أموره . أحس النعمان أنه في الواقع سجين في غير بلاده . وانقطعت عنه رسائل مملكته ، وتواردت عليه أخبار متناقضة لم يتبين وجه الحقيقة فيها .

## ١٤ - نهاية المناذرة

هذا ما كان من أمر النعمان بعد أن وصل إلى المدائن في ربيع سنة ٦٠٢ ميلادية . أما ما حدث لكتيبة الشرف التي صحبته برياسة الأمير حازم فلأن كسرى بعث بها إلى حدود الروم لتشارك في حركة استطلاعية ، ولكنها لم تعد للملك النعمان مرة أخرى .

كان هذا يجري في فارس على حين صدرت الأوامر من كسرى إلى فرقة الجيش الفارسية - دوسر - التي كانت تعمل في الجيش النعماني أن تعود إلى مدينة الحيرة ، وترابط هناك لتنفيذ ما تلقاه من ملك الحيرة الحديد الذي هو إياس بن قبيصة الطائي .

كان إياس بن قبيصة هذا من قبيلة طي ، وهي القبيلة التي نجح زيد بن عدى في استمالها إليه . وعند ما تولى ملك الحيرة في نهاية سنة ٦٠٢ ميلادية أصدر أمره إلى الفرقة الفارسية - دوسر - المرابطة في الحيرة أن تتسلم مسالحي الأبراج المحيطة بالقصر النعماني من الحرس النعماني ، فتم هذا . وأخذ إياس يبحث عن أسلحة النعمان وأمواله . فعرف أنها أرسلت وديعة إلى قبيلة بكر بن وائل . فأخبر كسرى بذلك .

وجاءت الأوامر من كسرى إلى إياس بن قبيصة أن يسترد من قبيلة

بكر بن وائل هذه الأموال والأسلحة بأية وسيلة . وفكر إياس ، ورأى أن ينتظر حتى ينزل رجال بني بكر بدوابهم على مياه « ذى قار » . فيكونوا بذلك بعيدين عن مواطنهم ، وأميل إلى الاستسلام . ولكن بني بكر رفضوا تسليم ما عندهم وقالوا: هذه أمانة سلمها إلينا النعمان فلا يتسلمها إلا النعمان .

وقامت « حرب ذى قار » ، وفيها قاد هانيء بن مسعود جيشاً عربياً ، فرق عليه أسلحة النعمان ، وقاد إياس بن قبيصة جنود الفرس والعرب . وثبت العرب في هذه الحرب ثباتاً عظيماً ، فانهزم الفرس بالرغم من كثرة عددهم . وتعرف هذه المعركة في تاريخ العرب بيوم « ذى قار » . وقد وقعت في سنة ٦١٠ م .

ويروى أن النبي عليه السلام لما بلغه خبر انتصار العرب على الفرس في هذه المعركة وهو بمكة - بعد إظهار الدعوة الإسلامية - قال: هذا أول يوم انتصر فيه العرب على العجم .

وتام حكم إياس بن قبيصة من سنة ٦٠٢ إلى سنة ٦١١ . ولم يكن يحكم البلاد مستقلاً ، بل كان بجانبه « مندوب » فارسي يقيم في الحيرة هو الحاكم الفعلي .

والواقع أن ملوك فارس ألغوا حكم المناذرة ، وولوا من قبلهم حكاماً من الفرس يخضع لهم زعماء العرب . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى

سنة ٦٣٣ م حين استولى عليها جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد .  
 أما ما كان من أمر النعمان الثالث بن المنذر - المسمى بأبي قابوس -  
 فيقال إن كسرى أمر به فوضع في حظيرة القبيلة . وأخذت الأفيال تدوسه  
 حتى مات .

وكانت نهاية ذلك الحكم على أيدي حلفائهم من الفرس ، كما  
 كانت الحال مع القساسنة في بلاد الشام . فقد أزال ملكهم حلفائهم  
 من الرومان .

## الفهرست

الصفحة	الموضوع
٥	١ - الزمان والمكان
١٤	٢ - التابغة في مجلس الجدل
١٩	٣ - الفساسة خصوم المناذرة
٢٦	٤ - النعمان في مجلس شرايه
٣٥	٥ - فن الصيد عند العرب
٣٩	٦ - النعمان يخرج للصيد
٤٤	٨ - حلم وتشاؤم
٥٣	٨ - خطر منتظر
٦٢	٩ - تدبير الحيلة
٧٠	١٠ - التقرب إلى نبي بكر
٧٦	١١ - هاني بن مسعود يسافر للحيرة
٨٤	١٢ - أسلحة النعمان وأمواله
٨٩	١٣ - النعمان يسافر إلى المدائن
٩١	١٤ - نهاية المناذرة

رقم الإيداع	١٩٩٥/٩٥٧٢
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-5104-6

٧/٩٥/١٠٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

